معهد البحوث والدراسات العربية

الاشتراكية والقومية وأثرهما في الأدب الحديث

محاضرات

ألقاها

الدكتور يوسف عز الدين

أستاذ الأدب العربي الحديث
في جامعة بغداد

على طلبة قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية

١٩٦٨

الاشتراكية والقومية
وأثرهما في الأدب الحديث

معهد البحوث والدراسات العربية

الاشتراكية والقومية

وأثرهما في الأدب الحديث

محاضرات

ألقاها

الدكتور يوسف عز الدين
أستاذ الأدب العربي الحديث
في جامعة بغداد

على طلبة قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية

١٩٦٨

الإهـــداء

إلى جيل أبنـائى . . .

لئن لم نحقق أحلامنا ، ولم نر أمانينا حقيقة واقعة . . . فعسى أن تسعدوا فى جيلكم فى وحدة شاملة وحياة اشتراكية عزيزة تسودها الرفاهية . . . وحسبنا أننا بذلنا ما فى طاقتنـا فى سبيلكم لتعوا حاضرنا المتشقق المريض ،ولتبنوا لكم حاضراً خيراً من حاضرنا ،سعيداً عزيزاً .

وتلك أمانينا ستبقى من أعز الآمال ، وأعذب الأحلام ما عشنا .

مقدمة

كانت فرصة سعيدة على نفسي ، عندما دعاني استاذي الجليل العلامة محمد خلف الله لإلقاء محاضرات في معهد البحوث والدراسات العربية ، فقد جدد صلتي بالمعهد وبأساتذته وطلابه الأعزاء .

وقد قلبت وجوه الرأي في المواضيع والتيارات التي سأحاضر فيها ، فعنّت لي عدة تيارات وجدتها جديرة بالدراسة والاهتمام ، منها ما درس في المعهد ومنها ما لم يدرس .

وقد رأيت أن أتناول جزءا من الموضوعات التي أدرسها في قسم الماجستير بجامعة بغداد ، وأمرّ مروراً سريعاً بالباقي منها، لأن فيها جوانب أراها جديرة بعناية الباحثين في الدراسات الفكرية العربية المعاصرة .

والوقت الضيق لم يسمح لي باستيفاء جميع الموضوعات التي أريد عرضها لذلك أكتفي بموضوعين أو تيارين هما الاشتراكية والقومية وأثرهما في الأدب العربي عامة وفي العراق بوجه خاص .

وسيجد القارئ إنني عنيت بالاشتراكية أكثر من عنايتي بالقومية لأنها موضوع بكر بالنسبة للفكر العربي المعاصر فرأيت أن أضع لبنة أولى في دراسته وأوليت العناية للجانب التاريخي منه لجهل كثير من طلابي بجذورها ومقوماتها وتتبع أثرها في الأدب العربي الحديث .

وقد عرضت في هذه الدراسة السريعة إلى الجوانب المهمة وكنت أتمنى أن أذكر آراء المعارضين لها وأذكر حججهم غير أن النصوص المحدودة التي وصلتني كانت حائلا دون ذلك وعسى أن تتاح لي فرصة كي أعرضها

بجلاء ووضوح للتعرف على جميع جوانب المعرفة ولاستكمال البحث والدراسة .

وأتمنى أن يتوفر على دراسة أثر الاشتراكية فى الفكر العربى المعاصر أحد طلاب الدراسات العالية ويعد فيها رسالة يستقصى فيه ما لم أقدر على استقصائه ، إذ ما تزال الكثير من النصوص والجذور متفرقة فى الكتب التى ألفت فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين وفى نتاج الأدباء المعاصرين .

وحسبى أننى أثرت موضوعاً جديداً وأترك لغيرى السير فى الطريق لتمهيده ...

والله الموفق ومنه نستلهم الصبر فى البحث والسداد فى الرأى .

القاهرة :

القاهرة { محرم الحرام ١٣٨٨
نيسان ١٩٦٨

يوسف عز الدين

الفصل الأول

العقيـــدة والفكر

البحث فى التيارات الفكرية يثير الحديث عن العلاقة بين الفنون والآداب على اختلاف أنواعها وبين العقائد التى تعتنقها الشعوب .

فقبل ظهور الدعوات الجديدة ونمو التيارات الفكرية فى كل بيئة من بيئات الإنسانية وانتشارها ، تتجلى ظاهرة الإحتجاج على النظم السائدة لتمهد الطريق للإصلاح الاجتماعى والفكرى ولتنقل حياة الشعوب القديمة إلى حياة جديدة خير من حياتها التى كانت تعيشها فى المجتمع القديم .

وعندما تسيطر الدعوة الجديدة على الفكر فى شعب من الشعوب وتلق صدى حسناً فى نفوس المصلحين نجد الأدباء فى الغالب يعانون من أزمات نفسية ورجات فكرية نتيجة النقلة والتردد بين القديم الذى ألفوه والجديد الذى داهم فكرهم وغير معالم حياتهم ، لذلك فهم يؤمنون أولا بالفكرة عقلياً ويظل وجدانهم بعيداً عن مسارب المؤثرات الجديدة . فالكاتب يريد أن يصلح فساد شعبه ويريد أن يغير حالته لكن رواسب الماضى المتكلسة فى اللاشعور تمنع عواطف الأديب من الانطلاق والحرية والانسجام مع التيار الجديد .

وفى مثل هذه الحيرة والقلق بين العقل والعاطفة تظهر دعوة الالتزام والتأكيد على ضرورة الأخذ بالمثل الجديدة لا سيما إذا كانت السلطات تأخذ بالتيار الجديد وتلتزمه وتفرضه على المجتمع قبل أن ينفعل الأديب به ويصبح جزءاً من وجدانه وعقله الباطني .

ومعنى الالتزام .. أن يصب الأديب أو الشاعر عقله فى أطر جديدة ويسير فى تيارات حديثة ويلزم عقله بأخذ هذه الدعوة ويجسدها فى أدبه . وعندها يظهر عنصر الصنعة ويطبع الأديب بطابع جديد يظهر وكأنه أدب مصطنع لأن العقل وحده هو الذى أملى الإنتاج ، دون أن تتسرب العاطفة إليه ، فنرى الكلمات فيه رجراجة والشعارات غير مستقرة وقد استعملت نابية ويصبح الأدب نسخا مكررة مملولة . . ويخرج الأديب من طور الاحتجاج والثورة إلى طور جديد يحاول أن يأخذ به فى أدبه ليساير هذا التيار الجديد .

وهذا واضح فى كثير من بدايات الدعوات إلى العقائد ، فقصائد حسان ابن ثابت وكعب بن زهير الأولى لا تختلف كثيراً عن قصيدة الأعشى التى نظمها فى الرسول الكريم إذ لم يكن قد تسربت فكرة العقيدة الإسلامية فى نفوسهم وإنما أحسوا بأن العقل ارتضى هذا الدين فيجب أن يؤيدوه . .

لما تسربت العقيدة الإسلامية فى النفوس وجدنا هذه العقيدة قد أصبحت جزءاً لا يمكن أن نفصله من أدب الأدباء .

وبعد أن تتسرب العقيدة فى النفوس ويظهر جيل جديد كان قد نما فى ظل العقيدة الجديدة فإن التأكيد على الالتزام يختفى لأن الأديب أو الفنان يتحول لاشعوريا ملتزماً ، وتصبح العقيدة نابعة من وجدانه وأحاسيسه ، فلا نجد أثر التصنع فى أدبه بعد أن تحول العامل الخارجى إلى الوجدان ، سواء جاء هذا التحول من عقله أو من المجتمع الذى يعيش فيه .

وبذلك تكون العقيدة السائدة بين الشعب صلة مشتركة بين الأديب أو الفنان وجمهوره ، وعند ذلك تتطور الموضوعات ويبدع فيها الأديب ويظهر الطابع الفنى المميز لكل فنان ويتجلى أسلوب التعبير ومتانته لكل أديب ، وعندها يمكننا أن ننفعل بالأدب أو الفن لاشعورياً ونفرق بين الفنان

الموهوب والكاتب العبقرى من إنتاجه ، وبين محترف الفن والأدب الذى يضيف إلى الإنتاج الفكرى أو الفنى (كماً)ولكنه لا يقدر أن يضيف على الانتاج (كيفاً) .

وقد كانت الشعوب فى الماضى منعزلة تمام الانعزال عن بعضها، فقد فرضت حياة القرون الماضية هذه العزلة ، لذلك وجدنا انسجاماً بين الشعب أو الجماعة الواحدة عندما تظهر العقيدة و تنتشر بينهم ، و بالضرورة يكون الأدب أو الفن فى هذه الجماعة معزولا فى بيئة محدودة ، و بمحيط فرضته العزلة وتحتاج المذاهب والآراء الجديدة لكى تنتشر وقتاً طويلا لصعوبة المواصلات وسبل اتصال الثقافة المختلفة ونشرها وسيطرتها . وقد ساعدت المواصلات الحديثة والطباعة وطرق الاتصال فى جميع أجزاء العالم على نشر الآراء وسرعة تداولها واعتناقها وكسرت طوق العزلة التى كانت فرضتها القرون الماضية . فنحن نجد اليوم فى البلاد العربية من يعتنق آراء أمم بعيدة بآلاف الأميال عن وطننا ، فقد سببت هذه السرعة انسجاماً فى العقيدة سريعاً ، فانعكست الآراء فى الآداب والفنون . فإذا كانت الأمم البعيدة عنا أخذت بآرائها وعقائدها تسيطر على عالمنا العربى ، ففى الشعب العربى قابلية واستعداد ليخلق توافقاً فى العقيدة وانسجاماً فى الآراء أسرع من أية أمة من الأمم .

وكان من جراء التأثر بالتيارات البعيدة ، أن فقد الأديب أو الفنان الصلة التى تربطه بالشعب الذى يعيش فيه ، لأن الشعب فى أكثره كان بعيداً عن التأثر بما تأثر به الفنان وقد يكون هذا التأثر عقيدة فنية أو آراء فكرية لم يقدر الشعب أن يشاركه فى عقيدته هذه ، ولم يكن الزمن قادراً على خلق العقيدة المشتركة بين الفنان والجمهور .

فكان من جراء فقدان الرابطة المشتركة بين الشعب والفنان المتأثر بالآراء البعيدة انصراف الكاتب أو الفنان إلى العناية الكبيرة بالشكل تعويضاً عما فقده من التجاوب الشعبي بين أدبه وبين شعبه وأضاع الموضوع الذى يجب أن يكون هدف الفنان، والمضمون الذى يجب أن يكون فى إنتاج الأديب .

وكان من جراء فقدان الصلة بين الجماهير والفنان والأديب أن وجدنا غموضاً وضياعاً وقلقاً فى الأدب العربى سرى إلى الشعر والقصة والمسرح والفنون الجميلة بصورة عامة ، فغدت الفنون والآداب عند هؤلاء مباراة فى إبراز المهارة الشكلية فى الألوان وانتشار الضوء وخلق أسماء ومسميات، تغطية للفن الجديد الذى فقد الصلة لوثقى التى تربط الماضى بالحاضر وهو نتيجة حتمية لفقدان العقيدة المشتركة بين الجمهور والمنتج ، أديباً كان أم فناناً .

والاشتراكية فكر جديد فى عالمنا العربى وتطبيق اقتصادى وسياسى لم تأخذ به الحكومات العربية إلا متأخرة، وقد شارك الأدباء والفنانون بانتاجهم محاولين نشر الفكر الإشتراكى واتخاذه وسيلة للوحى وسبيلا للكتابة وتسجيل مشكلات الشعب العربى فى هديه . دون أن تكون الإشتراكية قد تسربت فى وجدان الشاعر أو الأديب أو الفنان ، وإنما حاول أن يضع شعاراتها فى إنتاجه مساهمة منه فى بث وعى اشتراكى .

ولو رجعنا إلى جذور التفكير العربى فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لوجدنا الفكر العربى قد مر بمرحلة من مراحل الاحتجاج على المجتمع الذى كان يعيش العرب فيه فقد احتج وقاوم الاستعمار عندما رأى الشعب مهاناً مستعبداً وبرز الاحتجاج من جراء التفاوت الطبقى وتفشى الإقطاع وسوء حالة الفلاحين فكانت هذه الجذور سبباً فى أن

تظهر دعوات تنادى بتغيير حالة الشعب إلى حياة أفضل من حياته، تسودها الكرامة والعزة .

وقد تجلى هذا الاحتجاج بأساليب متنوعة من أبرزها الاتجاه العاطفى ورسم صور الرحمة والشكوى من حالة الشعب المتردية ، ومن أمثلة هؤلاء كان المنفلوطى الذى رسم فى كتاباته أجمل الصور التى تثير فى النفوس السخط والثورة والاحتجاج على حالة الفقراء ، والثورة على أصحاب الأموال والأغنياء، حتى كان يقول بأن أجمل البكاء بكاء المنكوبين، وقد كانت تعجبه فى مطالعاته أشعار الهموم والأحزان ومواقف البؤس وقصص المحزونين والمنكوبين . . . ومصارع الشقاء لأنه يرى أن الدموع مظهر الرحمة فى نفوس الباكين . . ولما أحب الرحمة أحب الدموع ، وكأنه يرى الحياة، موطن البؤس والشقاء ومستقر الآلام والأحزان (١) وظهرت فى العراق فى كتابات محمود أحمد السيدالذى عنى بالنكبات ومصير الضعفاء ، عناية واضحة ودعا صراحة إلى الاشتراكية والأخذ بها، متأثراً بالكتاب الروس وبآثارهم ومعجباً إعجاباً واضحاً بهم ،وسجل مارآه فى المجتمع العراقى من جهالة الأكثرية الساحقة ومتربتها ومرضها ، وعنى بالفلاح العراقى وآلامه وود أن يخلصه من عذابه (٢).

ثم تظهر الواقعة الاجتماعية واضحة فى قصص ذنون أيوب فى العراق ونجيب محفوظ فى خان الخليلى والقاهرة الجديدة ، وزقاق المدق وبداية ونهاية، وطه حسين فى « المعذبون فى الأرض » والاتجاه العقلى لدى سلامه موسى .

أما فى الشعر فقد وجدناه ظاهراً فى الرصافى فى العراق وحافظ ابراهيم فى القاهرة .

---

(١) النظرات ج ١ طبعة ١٩٥٢ لاحظ المقدمة .
(٢) فى الأدب العربى الحديث للمؤلف ص ٢٢١ فصل عن القصة العراقية .

ولما أصبحت الاشتراكية أسلوباً للعمل رأينا مشكلة الالتزام تظهر مرة أخرى فحاول قسم من الكتاب، الانتاج على ضوء الفكر الاشتراكي محاولين أن يبرزوا طابعه فى ثنايا كتاباتهم ، ولو تصفحنا هذا الانتاج فى جملته لما رقى إلى أدب الاحتجاج الذى كتبه الأدباء فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فهو أدب اجتماعى يمكن أن يوضع فى باب الاصلاح الاجتماعى التقليدى، لأنهم فرضوا الاشتراكية فى أدبهم فرضاً لما رأت عقولهم الاشتراكية شيئاً جديداً صالحاً ، ولأن المجتمع ارتضى الاشتراكية لوناً من ألوان الكتابة والفن ولم يكن الفكر الاشتراكى جزءاً من عقولهم، ولم يتسرب إلى أحاسيسهم ووجدانهم، ولم يصبح جزءاً من كيانهم ليصبح أدباً نابعاً من إيمانهم وعقيدتهم دون فرض عقلى أو دافع اجتماعى خارجى فكان من جراء ذلك وجود شخصيتين للكاتب : الاولى تؤمن بالمثل العليا وضرورة تطبيقها، والثانية تنبع من الإحساس الداخلى الذى تكلست فيه المثل القديمة . فهو ينادى بالإصلاح وتطبيق المثل الاشتراكية ولكنه يتردد كل التردد عندما يحاول أن يطبق هذه المثل على نفسه وذوى قرباه .

وعندما تسيطر الآراء الجديدة على الناس وتصبح جزءاً من اللاشعور أو العقل اللاوعى، ستطبق الاشتراكية من قبلهم ولو تخلف قسم منهم عن التطبيق لارتباطهم الطبقى أو الرأسمالى القديم ، فقد ظهر بعض الاغنياء وأصحاب رؤوس الأموال الذين يرتضون الاشتراكية مذهباً ولكن عواطفهم وحاجاتهم الفردية عاقت دون هذا التطبيق .

ولا يختلف العرب عن الشعوب الأخرى فى ظاهرة الاحتجاج والممهدات للدفاع عن مصالح الشعب والخروج به من وضع سيء إلى وضع حسن فقد وجدنا مثل هذه الممهدات فى الادب الفرنسى قبيل الثورة الفرنسية فى كتابات ديدرو ومونتسيكيو وفولتير وروسو فقد أعدوا بكتاباتهم الرأى العام

للثورة على الاقطاع الفكرى والاجتماعى كما حدثت مثل هذه الظاهرة فى روسيا فقد مهد الكتاب الروس من أمثال ليون تولستوى ومكسيم كوركى وبوشكن قبلهما لهذه الثورة .

ويمكننا أن نرى هذا الاحتجاج الواضح فى أقسام من البلاد العربية التى تظهر فيها سمات الاستغلال الواضحة وسيطرة الرأسمال العميقة، ولاسيما الأجنبى منها فى الدول التى لم تتحرر بعد .

وعندما تتأكد الفكرة الاشتراكية فى الأدب العربى الحديث ، ويعتنق الأدباء الاشتراكية مذهباً لهم فى حياتهم فلابد أن يظهر لون جديد من ألوان الأدب يتجه وجهة اشتراكية، تهدف إلى تحويل المجتمع العربى من مجتمعه القديمة ومثله السابقة نحو واقعية اشتراكية عربية تختلف فى مفاهيمها عن الأدب الاشتراكى العالمى، وتبرز مظاهرها واضحة المعالم تنبع من الواقع العربى ومشكلاته المختلفة وفقاً للنظرية الاشتراكية العربية التى ترتبط بفكرة الثورة وتمهد لاتساع الفكرة العربية فى وحدتها وحريتها ، وتصبح الفكرة العربية الاشتراكية وحدة حية مترابطة مع المنطق الأخلاقى لكل فكرة اجتماعية عربية ، مع كل الأدب الفردى والاجتماعى والمثالى . لأن الواقع الاشتراكى يجب أن يتسع للمفاهيم الانسانية الواسعة الآفاق ويحلل منطق الحياة العامة ويبذل كل جهده فى رسم الواقع لمكافحة المتناقضات التى تمنع وحدة الأمة وتطويرها نحو حياة أفضل من حياته الأولى.

ويجب أن يتخذ الكاتب الاشتراكى العربى الاشتراكية عقيدة عمل فى سبيل تطوير أمته وليست سبيلا فنياً ، أى أن الأدب الاشتراكى يجب أن يكون فلسفة يؤمن بها الأديب وأسلوباً لمعالجة المشكلات العربية وتوسيع الآفاق أمام الفكر العربى بعيداً عن كل طريقة شخصية .

والخلاصة ان الأديب المبدع هو الذى يصب تجاربه مع تجارب شعبه ويسجلها بأسلوب واقعى ينقل بها حياة شعبه إلى حياة مثلى جديدة .

الفصل الثانی

الدين والعلم

فى مثل هذا الجيل الذى نعيش فيه ألقت مشكلات الشعب العربى على عاتقنا مسؤولية ضخمة،فنحن فى عصر من أشد عصور العرب قلقاً،لأن الطاقات العربية عندما بدأت تعى نفسها وتحس مسيرتها ، وقف امام مسيرتها الأعداء من كل جانب خوفاً من وحدة العرب.ونسى هؤلاء أن العرب فى كل عصورهم كانوا رمز الحرية والحضارة ولم يكونوا من المعتدين أو الظالمين .

فالرسالة ضخمة،ولن يتحملها إلا الأديب الذى يحس بها إحساساً كاملا وينفعل بكل دقائق الأمور فيها ويقدر هذه الرسالة ويبذل كل طاقاته فى سبيل تبديل الفكر العربى وتطويره بأسرع ما يقدر عليه .

وقد ابتلى الشعب العربى بمعارك ضارية وأعداء من الداخل والخارج وأصيب بنكبات سياسية واقتصادية وفكرية ، بددت شمله ومزقت وحدته وشققت الرأى الموحد بين أبنائه . وعلى الأديب أن يصمد فى معركته الفكرية ويجرد نفسه صادقا لخدمة شعبه ، وأن يكون مخلصاً دقيقاً .

نحن وعينا مشكلاتنا مع دخول الاستعمار والسيطرة الأجنبية على بلادنا فيجب أن يتحول الأديب العربى لدراسة واقعنا العربى ، ويستخرج ما يلائم الذات العربية بعد أن تغيرت المعايير العالمية ودخلت إلى أذهننا مختلف الحضارات الانسانية وكلها تحاول أن تبتر العربى والمسلم من تراثه الحضارى العريق ليكون تائهاً فى حيرة ، يتخبط فى الحياة وعلى الأديب الاستفادة من التاريخ الحضارى الإسلامى ويلائم هذا التاريخ الحضارى مع الحضارة الحديثة ، ويخرج منها بما يفيد

الحاضر العربى ومستقبله . لأن المضمون الفكرى عند العرب يجب أن يتطور فى صالح الوحدة العربية والفكر الاشتراكى ، وأن تكون للكاتب شجاعة الجندى وعقيدة المؤمن فى سبيل قلمه ، وأن يختط تاريخاً جديداً لاتبعد مقوماته عن المثل العربية والإسلامية ، بعد أن سادت الحيرة النفوس وعم الضياع الفكر العربى نتيجة التخطيط الذى وضعه المستعمر عندما قسم البلاد العربية .

ومن الضرورى أن تكون أسس الثقافة الجديدة موحدة ، فى إطار واضح تعمل فى بناء مقومات عربية حضارية جديدة ، وإلا سوف تجرفنا الحضارة العالمية ولن يبقى لنا من مقوماتنا غير الصور الخيالية البعيدة عن واقعنا .

ويجب ألا ينسى الأديب أن من أهم خصائص القومية العربية السمو وعدم الاعتداء . وتتلخص مقومات الأدب الجديد بمناهضة الاستعمار ، ومساندة العمل الاشتراكى ، ورسم صور جماهير الشعب العربى ليسير نحو الوحدة العربية فى إطار ثقافى جديد لبعث الثقة فى مقدرة العرب لاستئناف النضال والدفاع عن كرامتنا ، وتوجيه الفكر العربى كله نحو مصالح الأمة العربية . إذ أن السيطرة على الشعوب لا تتم بسهولة ويسر إلا إذا تمكن الأجنبى من السيطرة على فكر الشعب .

وها نحن نرى الحرب قائمة للسيطرة على فكر الشعوب بكل سبيل ، لأن الاستعمار القديم خسر الوسائل القديمة التى كان يلجأ إليها ، وترك حرب الجيوش لأنها سرعان ما تخسر معاركها .

وقد ظهرت فى مجتمعنا العربى عدة اتجاهات فكرية ، حاولت أن تسيطر على الآراء العربية وتستعبدها ، محاولة القضاء على المقومات العربية ، والمثل الإسلامية التى اعتبرها الاستعمار أقوى قاعدة ثبت عليها الفكر العربى المعاصر وما زال يستمد عناصر قوته منها .

ولم يرتض الفكر العربى أن يقف متخاذلا أمام هـذه التيارات التى أرادت القضاء عليه، وإنما برزت فيه قابليته للتحدى، فوقف أمام الكثير منها وقبل ما رآه ملائماً منها .

وقد كان بودى أن أحاضر لكم فى جميع التيارات الفكرية التى انفعل بها الأديب والتى أثرت فيه ، غير ان وقتى الضيق حال دون الإفاضة ولابد أن نمرّ مروراً سريعاً على معالم التيارات التى ماتزال تعمل عملها .

وأول ملاحظة يجب أن نضعها نصب أعيننا ، ان هذه التيارات ليست وليدة اليوم أو السنة فمنها ما نذهب بعيدة الأغوار إلى قرون، فإذا عدنا إلى جذورها التاريخية أدركنا الكثير من الأزمات الفكرية المعاصرة ووجدنا كثيراً من الأجوبة التى تمر بالفكر العربى المعاصر .لأن فى فكرنا العربى المعاصر عدة تيارات وثقافات متنوعة منها ما رسب فى اللاشعور ومنها ما بقى على السطح ، واترك لكم التوسع فى الموضوع لسبر أغواره .

أما أهم هذه التيارات الفكرية التى ما تزال تعمل عملها فهو التيار الدينى. فبالرغم مما دخل على الدين الإسلامى من شوائب ، وزيدت عليه من زوائد بعيدة عن جوهره وأصالته فما زال القاعدة الفكرية القوية التى تنطلق منها كثير من الآراء والاتجاهات الفكرية المعاصرة والحديثة.

ومما يؤسف له ، أن كثيراً ممن تولى القيادة الدينية لم يحاول أن يرفع من مستوى الشعب العربى، ولم يلائم نفسه مع التطور الحضارى والتقدم الإنسانى. وحجب تعاليم الدين عن المجتمع العربى ، واهتم بالمظاهر دون العناية بالجوهر الاجتماعى الذى كان من أهم أسس الدين الإسلامى ، فقد مر العالم العربى بدور كان يعارض رجال الدين فيه هؤلاء أهم مقومات الحضارة .

فقد قال محمد كرد على :

« تأصلت الأوهام فعدت على أقدس القربات ، وسار الناس مع تيار الجهل ، وتقديس أقوال أدعياء العلم والتقوى ، وصدرت الأحكام بعوامل الأوهام وغدت هذه البلاد كبرج بابل فى التبلبل والتشويش اتخذت كل منهما لها أئمة وأولياء وأنشأت تكبر أمرهم وتدعى لهم مقاماً ، ادعوه لأنفسهم ، وراح الفقيه يكفر الصوفى والصوفى ينقم على تقديسهم ...) .

ويأتى على ذكر الكلمات التى يتهم بها هؤلاء مخالفيهم حفاظا على مكاسبهم الفردية فقال :

« فترى كلمات التضليل والتكفير والتبديع والتفسيق أسرع إلى أفواههم من الماء الحدور . . . فوا رحمتاه على أناس أضاعوا افضل عقولهم فى الجدل ، ولكم كان الخير يأتى من جهتها لو اشتغلت بالمفيد ونبذت الأهواء ظهرياً(١) . . . . .

وقد كان العرب - أو كان أكثرهم - تحت السيطرة العثمانية وكانوا راضين بالحكم الاسلامى لسببين : الأول أن أوربا كانت تريد استرقاقهم واستعمارهم ، وهى بعيدة كل البعد عن العرب فى تقاليدها وعاداتها . والثانى : ان الدين الاسلامى كان أرسخ فى قلوبهم وأعمق فى حياتهم ، وكانت عليه أكثرية الشعب العربى ، وبالفعل كانت أوربا تبذل كل ما فى طاقاتها للقضاء على الفكر الاسلامى ، لأنه كان يشكل خطراً يهدد مصالحها الاستعمارية وقد كان الاستعمار يرى العامل الدينى قوياً فى نفوس العرب ويقف أمام سيطرته

---

(١) القديم والحديث ، محمد كرد علي ، طبع القاهرة سنة ١٩٢٥ ص ٢٢

وحكمه ، فشن حرباً صليبية كما قال أسقف نيويورك ، والقائد اللنبي(١)
ولما دخل الجنرال غورو دمشق ، ذهب إلى قبر صلاح الدين وقال له : عدنا
يا صلاح الدين .

ثم إن رجال الاستعمار شنوا حملة شعواء على الدين الاسلامى، وزعموا بأنه
دين جامد لا يصلح للعصر الحاضر، ويوقف حركة التطور الانسانى(٢) . فان
صلح للقرون الأولى فلن يصلح للقرن العشرين ، فكان رد الفعل عميقا فى
نفوس المفكرين، فردوا على هذه الدعاوى، لأن الدين معناه الوطنية ومهاجمته
معناه مهاجمة الوطن والعقيدة، وقد وجدنا فى الرد على هذه الدعاوى صدى
فى شعر الشعراء ونثر الأدباء، الذين التفوا حول الدولة العثمانية باعتبارها حامية
الدين الاسلامى، وكان من جراء هذه المهاجمة أن دعا المفكرون إلى ضرورة
العودة إلى منابع الدين الاسلامى الأصيلة، والتمسك بالتعاليم القويمة، وتخليص
الاسلام مما تعلق به من شوائب وزيادات وخرافات ،بعيدة عن جوهر
الدين وأصوله ، فظهر جمال الدين الأفغانى ومحمد رشيد رضا ومحمد عبده
وعبد الرحمن الكواكبي وشكيب أرسلان .

وأول ما لفت نظر المفكرين ان السلطان باستبداده وحكمه المطلق حال

---

(١) نقل للاورد ويفل صورة رمزية من مجلة انكليزية للقائد الانكليزى اللنبي فى عودته من حرب فلسطين وقد كتب تحتها «العودة من الحروب الصليبية ، وتلقى رئيس أساقفة كانتربرى برقية من أسقف نيويورك يشكره على المساعى التى يبذلها فى الحروب الصليبية» عن جريدة الأهرام العدد ٦ مارس ١٩٢٠ . يلاحظ الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر تأليف أستاذنا الدكتور محمد حسين ج ١ ص ١٥ و ١٦

(٢) يلاحظ مهاجمة كرومر وتعليق نيومان القائل (.. تطور العالم خلال القرون بينما ظل الاسلام واقفا مكانه لا يتحرك فاذا أمكن للمبادىء الاسلامية أن تتطور مع الزمن المتطور ، بدلا من الارتباط بعالم خيالى لا يسمح للتطور الزمنى أن يتطرق اليه ، وقد تراكم عليه نسج العنكبوت منذ فرار محمد من مكة . .) الدكتور محمد حسين ج ٢ ص ٢٨٧

(٣) من الشعراء يلاحظ شوقى والكاشف ويكن . ومن الكتاب محمد عبده وعبد الله نديم ومحرم والرصافي والزهاوي والشبيبي والعقوبى وغيرهم .

دون الاصلاح لأنه لم يقبل المناقشة والشورى ، واستبد بالحكم وترك أمر الدين وانغمس فى أمر دنياه ، فظهرت صيحات الاصلاح فى كتابات هؤلاء .

وقد كان ظهور جمال الدين الافغانى عاملا فعالا، فى هذه الفترة فقد رفع لواء السياسة والدين، ولم يكن يستطيع أن يؤثر تأثيراً إصلاحياً سياسياً إلا عن طريق الدين الاسلامى ومن أجل ذلك ركز أكثر جهوده الثورية فى الاصلاح الدينى والعمل على تطهير الاسلام من البدع والرد على المستشرقين الذين هاجموا الدين الإسلامى، ومن ذلك رده على أرنست رينان ودفاعه عن العرب ومن آرائه فى الإصلاح قوله (إنا معشر المسلمين إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا، فلا خير لنا فيه، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق ، وأن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا ، من حيث الرقى والأخذ بأسباب التمدن ، هو عين التقهقر والانحطاط ، لأننا فى تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوربية(١) . . .)

وقوله (. . . لا بد من حركة دينية وهى اهتمامنا بقلع ما رسخ فى عقول العوام ومعظم الخواص، من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقى ، وبغير القرآن وبث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى) (٢) .

وجمال الدين الأفغانى تظهر قدرته على الاقناع بعد المناقشة فى شخصيته القوية ، فهو من ذوى الشخصيات الفذة التى تؤثر بالمنطق والنقاش ، مثل سقراط الذى كان يقنع طلابه بآرائه بالاستقراء والاستنتاج . وقد ظهر أثر جمال الدين واضحاً فى طلابه ومريديه، فوجههم الوجهة التى كان يراها سليمة فظهر أثره فى محمد عبده ورشيد رضا وأديب اسحق وغيرهم .

(١ و ٢) يراجع خاطرات الأفغانى والاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني لمحمد عمارة ص ٣٢٧ و ٣٢٨

وقد نادى عبد الرحمن الكواكبي بالاصلاح ، فى كتابيه «أم القرى» و«طبائع الاستبداد» وقد عالج فى الكتابين الناحيتين السياسية والدينية وقد كان يربط بين الفكرتين فى كثير من الأحيان .

وقد هاجم الكواكبي الاستبداد مهاجمة عنيفة ، لأنه يفسد أخلاق الشعوب بعد أن يسلب أفرادها إرادتهم ، فيبيح المحكوم الكذب والخداع والنفاق ويصبح الشعب عبدا مهاناً ذليلا للحاكم المستبد ، وفى كتابه طبائع الاستبداد أبرز كلمات الاستبـــداد والاستعباد والاعتساف والتسلط والتحكم والحاكم المطلق والظالم والجبار وجعل مقابلها الشرع المصون والحقوق المحترمة والعدالة .واشتق منها، كلمات الاستبداد المستبد والمستبد عليهم، وذكر معهاأسرى وأذلاء،ووضع مقابلها الأباة الأحرار، وبرأ الدين الإسلامى من أعمال المستبدين لأنهم حكموا باسمه دون أن يطبقوا قواعده وفرق بين النفوذ الدينى وبين السياسة فقال :

« لا يوجد فى الإسلام نفوذ دينى مطلقاً فى غير وسائل إقامة الدين ،هذا الدين الحر السمح الذى رفع الإصر والأغلال وأباد الميزة والاستبداد ، الدين الذى ظلمه الجاهلون فهجروا حكمة القرآن ودفنوها فى قبور الهوان، الدين الذى فقد الأنصار والأبرار والحكماء الأخيار ، فسطا عليه المستبدون واتخذوه وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم الأمـة شيعاً وجعلوه آلة لأهوائهم فضيعوه وضيعو أهله(١) .

وأرجوأن يدرس هذا الكتاب دراسة تفصيلية وتشرح ظروفه والبيئة التى كتب بها الكواكبي هذا الكتاب مع أم القرى لأن الكاتب وقف موقفاً صريحا من المستبد ومن عبادة الفرد وبث فكـرة الشورى

---

(١) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ص ١٩ — ٢٠ .

أو الديمقراطية ، وعنى بالشعب عناية واضحة وأراد الحرية له ، وأن يكون الشعب مراقباً أعمال الدولة وأن يحاسبها على الهفوات التى تقوم بها، لأن الدولة عندما تأمن من الحساب والمراقبة ، تندفع لا شعورياً نحو الحكم الفردى والاستبداد، وكلما كان للشعب أثر فى الحكومات أمنت هذه الحكومات من الزلل ، والمستبد لا يخاف من العلوم الدينية المحضة لكنه يخاف كل الخوف من العلم والعلماء فى الموضوعات الأخرى، لأنه يرى نفسه أصغر من العلماء فلا يتقرب اليهم خوفاً من ذكائهم وقابلياتهم ، وهو لا يحب إلا المتصاغر المتملق .

وللدكتور شبلى شميل نظرات دقيقة فى موضوع الإصلاح أشاع فيها وعياً بين الشعب وخاصة بين المتعلمين فى عصره، وأصبحت آراؤه مجالا للدراسة والبحث، فقد آمن بقوة الأمة وبضرورة الإصلاح وتحدث عن النظام الجمهورى لأنه نابع من صميم الشعوب .

ورأينا الدعوة للجمهورية فى كتاب الزهاوى « المجمل مما أرى »(١) وقد اعتبر السعادة فى النظام الجمهورى ، لأن فى هذا النظام المساواة القائمة على حاجة الشعوب ، وقد كان الرصافى صريحاً عندما وصف استبداد السلطان العثمانى، وقال: وفى استبداده ابتعد عن جوهر الدين الإسلامى حتى يأمن إلى ملذاته ويركن إلى مصالحه الخاصة ، فقال من قصيدة نختار قسما من أبياتها :

مثل الحكومة تستبد بحكمها — مثل البناء على نقا متهيل
يا أمة رقدت وطال رقادها — هبى وفى أمر الملوك تأملى
كم جاء من ملك دهاك بجوره — ولواك عن قصد السبيل الأفضل
يقضى هواه بما يسومك فى الورى — خسفاً وينقم منك إن لم تقبلى

---

(١) المجمل مما أرى ص ٦٦ .

إنّ الحكومة وهي جمهورية كشفت عماية قلب كل مضلل
سارت إلى نجح العباد بسيرة أبدت لهم حمق الزمان الأول(١)

ولو قرأنا كتب هذه الفترة لوجدنا في (مجال الغرر) للشدياق، وتخليص الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة رافع الطهطاوي، وعبرة وذكرى لسليمان البستاني، والمعلوم والمجهول لولي الدين يكن. وغيرها عن الكتب، لرأينا الإجماع على ضرورة الإصلاح سواء أكان عن طريق الدين الاسلامي أم عن أي طريق آخر.

وقد كانت حركات الإصلاح تقابل برد فعل من بعض المفكرين الذين اعتادوا الركود والخمول، وصعب عليهم التخلي عن حياتهم التي اعتادوها وطرازها الذي ألفوه. ومن الصعوبة أن يتخلى الإنسان عن شيء شب عليه فثار نقاش حول هذا الإصلاح وطريقة الدعوة إليه، ولكن الملاحظ أن الدعوة إلى الاصلاح كانت تلازم الفكرة الوطنية، ولم يكن طلاب الإصلاح يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية، حتى أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وبدأت حركة التتريك تدعو إلى العودة إلى أمجاد المغول وتغيير أسماء الأتراك الاسلامية والعربية إلى أسماء مغولية وتركية قديمة، ثم زاد الطين بلة أن جمعية الاتحاد والترقي التي كانت قد سيطرت على الحكم وعزلت السلطان عبد الحميد أخذت تفتك بالعرب، وشنقت رعيلا كريماً منهم، في دمشق وبيروت فرأى العرب ضرورة الدعوة إلى الانفصال وتأسيس حكم عربي يؤمن لهم حياة كريمة، وهم أصحاب المجد القديم وأرباب الخلافة وسدنة الدين الإسلامي، مما سنراه في فصل تال، أما التيار الفكري الآخر فهو تيار العلم الجديد الذي أخذ يتسرب إلى الفكر العربي من خلال المقتطف والهلال وغيرهما من المجلات والكتب التي ترجمت إلى اللغة العربية النظريات الجديدة.

---

(١) ديوان الرصافي ص ١٦٣ ويراجع بحث لنا عن الاتجاه الاسلامي في مجلة المعلم الجديد الصادرة في بغداد.

وعندما برزت الدعوة إلى العلم ظهرت دعوة جديدة معها ، هى الصراع بين الجديد والقديم وسرت المعركة الفكرية على الحياة المادية والاجتماعية والروحية وكثر فيها الجدل والنقاش، فهل نأخذ من علم الغرب ونتأثر به؟ أم نتركه ؟ وقد برز فى هذا الميدان عدة كتب وعدد من الكتاب والشعراء وجرت هذه الدعوة إلى أن نظم الشعراء قصائد فى التحبيذ أو الهجوم . انتقلت هذه الدعوة من مصر إلى البلاد العربية وظهرت آثارها فى إنتاج الأدباء . وبذلك فقد دخلت الحضارة العربية والشرقية صراعاً مع الحضارة الغربية .

ومن الأدباء من اندفع فى التأييد وأنكر الحضارة العربية والاسلامية وكان يكتب وفى ذهنه أوربا ومنهم من زاده الغزو الغربى تمسكا بتقاليده ومثله وقيمه، وفريق ثالث أراد أن يأخذ من الجديد شيئاً ويبقى من القديم أحسنه وقد كان عبد الله النديم من الداعين إلى التمسك بالعادات الاسلامية الشرقية وهاجم أوربا وسخر منها ، ومن الذين يؤيدونها ويقلدون عاداتها وفى مجلتى (التبكيت والتنكيت) و(الأستاذ) أمثلة على هذه السخرية وذكر ما جاء به المستعمر من الويلات على الشرق من فساد وانحطاط وموت الشخصية وهدر الكرامة . وألقى تبعة ذلك على زعماء مصر وقادتها الذين افسحوا للمدنية الأوربية هذا المجال(١) .

والذين حاولوا جلب المدارس الغربية والآراء الحديثة جلباً لم يجدوا القبول لأن أوربا أملت مذاهبها عليها الحاجة الملحة إليها وبذلك نجد أن الأدباء قد ساروا فى ثلاثة تيارات .

فريق سار على النسق العباسى والعصور الزاهرة باعتبار صحة ما سبق

---

(١) ظهر بعد النديم سلامة موسى ودافع عن أوربا وهاجم الدين الاسلامى والعروبة وممن وقف ضد هذه الدعوات المرحوم الرافعى لاحظ كتابه (تحت راية القرآن) .

واقتبسوا من هذه العصور التشبيهات والاستعارة والصور الشعرية، فتحدثوا عن أماكن لم يروها واستمطروا السحب ووصفوا الناقة من أمثال الكاظمى والبارودى، وفريق حاول الاستفادة من أوربا مثل العقاد والمازنى وشكرى، وفريق وقف بين الأمرين كالرصافى وشوقى. وتميز هذا الفريق بالمحافظة على عمود الشعر وأراد تطويره فى تؤدة خوف العثار.

وفى النثر ظهر هذا الصراع بين القديم والجديد فى النقاش الذى قام بين مصطفى صادق الرافعى وطه حسين. فالرافعى متمسك بالقيم الموروثة، وطه حسين متجدد مطور وقد ربط الرافعى الصراع الفكرى بالدين الاسلامى ورأى أن أية دعوة للجديد قد تمس اللغة وتمس المثل وبذلك فهى تمس الدين ولذلك سمى كتابه الذى جمع فيه النقاش بينه وبين دعاة التجديد تحت راية القرآن.

ورغم الصراع الشديد بين القديم والجديد رأينا الحياة الأوربية تؤثر تأثيراً واضحاً فى حياة الفكر فى البلاد العربية، فقد رأينا صدى الحياة المادية الأوربية والفلسفية، تظهر فى شعر الشعراء مثل آراء ديكارت (أنا أفكر فأنا موجود) ونظرية جيمس جينز فى الفلك. ونظرية النشوء والارتقاء، كما ظهرت أسماء المخترعات الأوربية الحديثة فى الشعر الحديث وقد سميت العلوم الحديثة العلوم الدنيوية أو العلوم العصرية أو العلوم الحديثة.

ومن يدرس دواوين الشعراء فى هذه الفترة يجد مصداق هذا القول. وسيجد هذه الأسماء محشورة حشراً فى الشعر ونابية فيه رجراجة فى سطوره وان كان لأوربا من أثر فقد رجت مثلنا وبدأ يتسرب الشك إلى كثير من تقاليدنا وأخذ المفكرون يقارنون بين حالة الغرب وما عليه من تقدم وحالة العرب والشرق وما عليها من تأخر وانقسام فاندفع قسم منهم فى تأييد

المغرب، وتبرأ من الشرق ومن العرب من أمثال سلامه موسى، وبذلك وجد الغرب ثغرة أو ثغرات جرت إلى تفتيت الفكر العربي والاسلامي ووضع مثله وتقاليده مكانها .

ولا شك بأن النظريات الجديدة والاختراعات الحديثة فتحت الأذهان على عوالم جديدة دعت المفكرين إلى التشكيك بالنظريات القديمة وقد سرت هذه الظاهرة فى الشعر ومن هؤلاء معروف الرصافى فقد قال :

والعلم قد انكر منهاجنا ولم يبن أين هو المهيع
فرقت يا علم رداء لنا كنا ارتديناه فهل ترقع ؟
فجعتنا يا علم فى أمرنا أمعتب أنت إذا نجزع
لقد طغت حيرة أهل النهى هل فيك يا علم لنا مردع ؟

أما محمد كرد على فلم يرد من المقلدين للغرب أن يأخذوا كل شئ وإنما عليهم اختيار ما يلائمهم ويلائم محيطهم . وقد شبه العلم الجديد كالمائدة الحافلة بكل شئ : فيجب أن نختار منها الصالح ، ونعى على الجيل الجديد ازدراده هذه العلوم دون روية وعنايته بالسطحى من أمور أوربا دون أن يتعمق فى الموارد العميقة فقال :

ونشأت ناشئة لم تدر من العلم الحقيقى غير قشوره ،رشفت رشفة من مورده ظنتها غاية ما يرتوى به المرتوون وراحت تعد المروق غاية التنور والازدراء على النبوات من آيات الحكماء ، والطعن فى الشرائع من عمل الجهابذة النحارير ، وانكار القديم مهما كان نفعه ، والتعلق بالحديث مهما ضؤل قائله من دواعى النهوض والاستنارة(١) » .

---

(١) القديم والحديث ص ٢٣ .

وقبل أن انتهى من هذا العرض السريع للتيارين، لا بد أن أقول إن الآراء الأوربية التى نبعت من بيئة غربية ، يجب أن نأخذ منها مايلائم المحيط العربى ، وأن نعيد النظر فى النظريات والتقاليد الأوربية البحتة التى سيطرت علينا ، فإن كثيراً من الآراء التى وصلت بلادنا ما تزال تصطرع لتجد لها أرضاً تنبت فيها ، ولكن الفكر العربى أثبت حيوية الأمة العربية ، وأثبت قابلية التمحيص التى ترد الزائف وتطرده من بيئتنا ، وسوف نقبل الصالح منها لأننا بطبيعة تكويننا مؤمنون بضرورة التطور والتجديد فى جميع مجالات الحياة . ولا يضيرنا الأخذ من جميع الأمم والحضارات ما يلائم حاجاتنا المعاصرة ، لأن الأمم تتفاوت فى البيئات فعلينا أخذ ما نحتاجه وترك ما يسبب أضراراً فى المجتمع .

الفصل الثالث

جذور الاشتراكية

نحن أمة حديثة العهد بالاشتراكية بمعناها الأوربى الجديد فى نظامها، رغم وجود جذور وأصول لها فى المجتمع العربى القديم، والإسلامى. غير أن الاشتراكية اليوم أخذت طابعاً مميزا، وفلسفة مرسومة .. وأخذت تؤثر أثرها الواضح فى الفكر العربى المعاصر، وتعمل عملها فى الحياة العامة.

أصل الاشتراكية :

فمن أين جاءت كلمة الاشتراكية Socialism التى اشتق منهـــا كلمة الاشتراكى Socialist ؟

هذا سؤال لم أجد له جواباً شافياً واضحاً. لأن جميع التيارات الفكرية والأدبية لا يمكن أن تظهر فجأة ولا بد أن تكون لها ممهدات وبعد أن تتسرب الينابيع الصغيرة لتكون رافداً كبيراً، وقد يكون القرن التاسع عشر مبدأ هذا الظهور وهذا مارجحه الأستاذ كول أستاذ النظريات الاجتماعية فى جامعة اكسفورد وحدد زمن ظهورها بسنة ١٨٠٣ فى نص إيطالى لم يذكره لنا (١) ولكن الكلمة كان لهـا مدلولها الخاص، فهى أقرب إلى العدالة الإجتماعية والإصلاح الاجتماعى، لأن القرن التاسع عشر فى أوربا كان قرناً ظهرت فيه التيارات الإصلاحية جلية، وفيه تبلورت الرأسمالية وقضى على الزراعة وأصبح الفلاحون أجراء فى المعامل، وفى هذا القرن بدأت

---

(١) رواد الفكر الاشتراكي ص ١٢ تأليف ج. د. هـ. كول ترجمة منير البعلبكي بيروت ١٩٦١

تتطور هـذه الـكلمة فغدت تعنى مذهباً اقتصادياً واجتماعياً ، نتيجة للظلم وللانحطاط وسوء المعاملة التى حلت بالإنسان الأوربى من جراء الثورة الصناعية ، فتنادى المصلحون إلى حل المشكلات الاجتماعية التى ظهرت فى هذا القرن ، ومن كلمة Social يفهم معنى الاهتمام بقضية الإنسان ومجتمعه . فلا غرابة أن وجدنا أولئك المهتمين بالدعوة إلى إصلاح النظام الاجتماعى يسمون Socialists لأنهم وضعوها فى الدرجة الأولى، بالمقارنة إلى القضايا السياسية والاقتصادية والأدبية والفـكرية .

ومن ثم تطورت هذه الـكلمة وحددت معانيها حول نظام اقتصادى له حدوده ومقوماته. واحتضنت عدة جمعيات وندوات هذا النظام مثل جماعة سان سيمون (١) وجماعة أوين (٢) وجماعة فورييه (٣) . وكان هدفها أن يدير الحياة الاجتماعية المنتجون أنفسهم لإصلاحها ، لأنهم رأوا أن من العبث أن تتولى السياسة والمجالس النيابية والوزارات إصلاح هذه المجتمعات. لأن إبعاد السياسة عن الحياة الاقتصادية خير سبيل لهذا الاصلاح(٤) .

فقد كان مفهوم الاشتراكية فى بدايته إسعاد الشعب اجتماعياً ، وإصلاح أوضاعه بتوزيع الثروة والإنتاج على أبناء الشعب ، دون أن تـكون للعمال امتيازات خاصة ولم يفـكر المصلحون فى الصراع الطبقى (٥) الذى جاء من جراء توسع الرأسمالية وشموخها ، بعدأن انتشرت المصانع والمعامل فى أوربا. وظهر بوضوح الغنى المفرط ، والتفاوت فى المـال بين العمال وبين أصحاب رأس المال ، لذلك نجدهم يطالبون بتحديد الملـكية الخاصة ،

---

(١) النظام الاشتراكى ص ٦٩ وأسس الاشتراكية ص ٢٣ .
(٢) « « ٧٢ « « ٢٢ .
(٣) « « ٧٥ « « ٢٣ .
(٤) روادالفكرالاشتراكى ١٦ « « ٨٠ .
(٥) « « ص ١٧ والنظام الاشتراكي ص ٨٠ .

ولعل مرد هذا المطلب إلى أن الطبقة التى كانت ما تزال تسيطر عددياً أو انذاك هى طبقة الفلاحين الذين بقيت صلاتهم بالأرض وثيقة ..

أصل الشيوعية :

وحاولنا أن نجد متى ظهرت كلمة الشيوعية Communism وقد حدد لها سنة ١٨٣٠(١) إذ أن فكرة الشيوع جاءت من فكرة الملكية المشتركة فقد استعملتها العصبة الشيوعية Communist league فيما بعد سنة ١٨٤٨ وظهرت واضحة فى البيان الشيوعى Communist monefeste ثم انتشرت الكلمة بين المفكرين وغدت تعنى الاشتراكية، لأن الفكرة الشيوعية حملت معها كلمة النضال الثورى إلى جانب الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى، فقد قال عنها انكلز إنها أقل خيالا من غيرها .

وكل مذهب من المذاهب الإصلاحية، لابد من دواع لظهوره وبروزه وكلما وجد صدى فى نفوس الشعب كانت قواعده أرسخ فى الرأى العام، ومتى تبنى المفكرون وقادة الرأى فكرة الإصلاح كتب لها الذيوع والانتشار .

وقد رأينا القرن التاسع قرناً استغل فيه الشعب أسوأ استغلال ، وتعدى هذا الاستغلال إلى تشغيل الأطفال والنسوة والضعاف فى المعامل ولأوقات طويلة غير محدودة ، دون أن يكافئوا على مقدار الجهد الذى كانوا يبذلونه ، وكانوا يعيشون عيشة البهائم ويتكدسون فى أكواخ تعافها النفس ، فرأى المفكرون فى أوربا أن الضرورة الاجتماعية تقتضى وضع حد لهذا الاستغلال ، وانتقدوا الأوضاع السيئة التى حاقت بالعامل والأجير .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠

(٢) المصدر نفسه ص ٢١

ولست أزعم أنى وصلت إلى جذور الاشتراكية ، ولكنى أحسب أن هناك فترة غير محددة مرت بالإنسان ، كان المفكرون يقودون حركات الإصلاح الاجتماعى لتحسين أحوال الشعب، قبل الثورة الفرنسية .

فقد وجدنا فى العقد الاجتماعى وغيره من كتب كتاب فرنسا مثل هذه الدعوات ، كما أن الفكر الإنكليزى لم يخلُ من دوافع إصلاحية، ففى كتابات فرنسيس Placc وجون بيلرز Beilers آثار واضحة للدعوة الإصلاحية ، لتغيير أوضاع المجتمع الذى كانوا يحسون وطأة ثقله على الشعب .

والذى لا أشك فيه أن فكرة الاشتراكية ولدت حركة اجتماعية بحتة قبل الثورة الفرنسية ، ثم أخذت هذه الفكرة تتبلور وتتطور ، من فكرة إصلاحية أخلاقية تدعو إلى العناية بالفقراء ورفاهيتهم فى رفق وهوادة ، إلى أن غدت ثورة جامحة ، ترمى إلى نزع الامتيازات التى كان يتمتع بها رجال الدين والنبلاء والإقطاعيون، وبدأ الفلاح الفرنسى يشعر بأنه يجب أن يكون صاحب الأرض وأن يتساوى مع الطبقة العليا فى الحقوق والواجبات السياسية ، ولما انتشرت الدعوة أضافت إليها مشكلة نتجت عن الاضطراب الاقتصادى الذى حدث خلال الثورة الفرنسية ، هى ضرورة إيجاد العمل للعمال المتعطلين(١) ، وكانت مطالبهم واضحة ، وهى تفتيت الملكيات الزراعية الكبرى وإلغاء الابتزازات الإقطاعية ،وإبطال الامتيازات وحقوق الملكية الضخمة التى اكتسبتها الكنيسة مع الأيام ، بيد أنهم كانوا يهدفون إلى نشر الملكية الخاصة بين الفلاحين ، ولم يطالبوا بالقضاء عليها . وبالفعل فقد ألغت الثورة الامتيازات ودعت إلى المساواة أمام القانون (٢) .

ولاحظنا أن الاشتراكية اقترنت بالثورة الفرنسية وصاحب

---

(١) كول ص ٢٩

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠

الاشتراكية القضاء على الملوك والثورة على الدين المسيحي ونشر الإلحاد .

البلاد العربية ، وجمال الدين الأفغاني :

وقد وصلت هذه الحركة الفكرية البلاد العربية ، وتصدى لها جمال الدين الأفغاني ، ولم تكن هذه الفكرة واضحة المعالم في ذهنه أول الأمر أو أنها لم تكن واضحة الوضوح التام في عصره لذلك سمى القائمين بها السوسيالست (الاجتماعيين) والنهيلست (العدميين) و الكمونيست (الاشتراكيين) واعتبر كل هذه الحركات متفقة في المظاهر ولكنها لونت أغراضها بما يوهم المخالفة للأخرى ، وأنها زينت دعواها بأنها سند الضعفاء والمطالبة بحقوق المساكين والفقراء ، ثم يذكر جمال الدين غايات هذه المذاهب الثلاثة وأصحابها فيقول إلا أن غاية ما يطلبون إنما هو رفع الامتيازات الإنسانية كافة ، وإباحة الكل للكل وإشراك الكل في الكل ، وكم سفكوا من دماء ، وكم هدموا من بناء ، وكم خربوا من عمران ، وكم أثاروا من فتن ، وكم أنهروا من فساد ، كل ذلك سعياً للوصول إلى المطالب الخبيثة(١) . . . ولم يرهم إلا قوماً يريدون الفساد والتخريب في الأرض فهاجمهم لأنهم يهدمون الدين والملك ، وقد ساءته عمليات الفتك بالملوك والأغنياء التي كانت تصاحب حركاتهم(٢) .

ولم يكتف جمال الدين الأفغاني بالهجوم على المذاهب المذكورة إنما هاجم فولتير وروسو ، ورأى أن كتاباتهم سببت أزمات في فرنسا ، وأفسدت أخلاق كثير من أبنائها وكان من جراء ذلك أن تطاحن الشعب واختلفت المشارب فيه . واتسعت شقة الخلاف بينهم وقد كان الشعب الفرنسي متحدا

---

(١) الرد على الدهريين جمال الدين الأفغاني القاهرة ص ٦٧ و ٦٣ ط ١٩٤٧ .

(٢) المصدر السابق .

قبل ظهور كتاباتهما (١) ، ورأى أن ظهور هذه المبادىء كانت سبباً فى إفسادالهيئة الاجتماعية ، وتزعزع أركان المدنية، وقال: (وليس منضروب الباطل، ماهو أشد منها تأثيراً فى محو الفضائل، وإثارةالخبائثوالرذائل(٢))

وفى خاطراته يراها ضرراً بعد أن كانت نفعاً ، ويرى أنها وجدت للانتقام من جور الحكام ، وحسد العمال من الأغنياء الذين اكتنزوا المال واستعملوه فى السفه وبذروه تبذيراً ولولا إفراط الأغنياء فى جمع المال ونبذ حقوق العمال والفقراء لما ثاروا عليهم ، وعندما اعتنقوا الاشتراكية ظهرتالفوضىفىأمرهم،ورأىأنالاشتراكيةفىالإسلامألصقبجوهرالدين(٣)

وليسمن يلوم جمالالدين على هذا لسببين: الأول ماارافق هذه المبادىء من إراقة للدماء ، وعدم وضوح الفكرة أو انذاك ، وهذا برنارد شو نفسه الذى يعرف البيئة الأوربية أكثر من جمال الدين ، وبعد جلاء الفكرة الاشتراكية ووضوحها ، يقول : (إن عامة أفراد الطبقة الوسطى يعتقدون أن الاشتراكية عملية غير نزيهة بشكل صارخ ، وأنها لا يمكن أن تتحقق فى الغد إلا بطريقة ارتجالية مع الاستعانة بالمقصلة ، وعدم وجود شرطة ، والاعتماد على نذالة الجماهير(٤) .

برنارد شو :

وبرنارد شو اشتراكى له كتب فيها وله جمعية تبنت هذه الفكرة وقد رسم الطريق الذى يريد أن تأتى به الاشتراكية ، فقد أرادها أن تصدر عن رغبات الشعب ومن صميم المجتمع ، لأنه لا يرى فى الاشتراكية إلا مذهباً

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٧١ .
(٣) خاطرات الأفغانى ص ١٨٩ و ١٩٠ لمحمد باشا المخزومي بيروت ١٩٣١
(٤) مقالات في الفابية ص ٧١ .

يجب أن يقتنع الناس به، وألا يفرض على الشعب فرضاً فقال :(والواقع أن الاشتراكية نزيهة ، إلى جانب كونها حتمية ، ولكن إذا كان جبروت الشرطة لا يستطيع صد الاشتراكية،فإن اجتماع رعاع العالم كله ، ومقصلات العالم كله لا يمكن أن تفرض الاشتراكية فرضاً) (١) وبذلك فقد أراد شو التدرج فى نشر الاشتراكية وتطبيق مبادئها بجعل الإيجارات والفائدة فى يد الدولة ولكن على شكل دفعات (٢) توالى بعضها بعضاً ، ولا يريد أن تفرض بالقوة .

انكلترة :

وإذا أردنا أن نوغل حتى نصل القرن الخامس عشر والسادس عشر حيث الآلة ، وحيث النهضة الصناعية التى بدأت فى انكلترة نجد الفلاحين فى مزارعهم وأصحاب الحرف اليدوية فى مصانعهم الفردية يتحولون إلى عمال وأجراء فى المعامل، التى قامت من جراء الثورة الصناعية لأنهم لم يقدروا على مقاومة الآلات الضخمة التى أخذت تنتج أضعاف ما ينتج الفرد ، وبسعر أرخص ووقت أقصر ، وأخذت أموال الرأسمالية فى التضخم ، وبدأت حالة العمال تسوء يوماً بعد يوم .

ثم تأسست شركات للصناعة والملاحة لنشر البضائع وبيعها ، وبدأت الرأسمالية ، تشمخ وحصرت الثروات الكبيرة بيد جماعة من الأغنياء وأخذت الملايين طريقها إليهم .

والتحول من الزراعة إلى الصناعة والقضـــاء على الإقطاع والتقدم الرأسمالى أمور حتمية فى مسيرة التاريخ الإنسانى اقتضاها سير المجتمع البشرى

---

(١) مقالات فى الفابية ص ٤١ .

(٢) مقالات في الفابية ص ٤٤ .

كان القصد منها تحرير طبقة وتحول المجتمع إلى حياة جديدة ، فالرأسمالية بالقياس إلى ما قبلها من العصور خطوة تطورية وفكرة تقدمية أخذت المجتمع كله وطورته وأعانته معاونة كبيرة ، فسيطر على أمور فى الطبيعة وقوى لم يكن قادراً عليها من قبل بل كان يخافها .

والدول الرأسمالية معروفة ومحدودة العدد ، فى أوربا وأمريكا وكندا ، فلا نعجب أن نجد لينين يعتبر الرأسمالية أمراً حسناً ، فقد قال :

إننا أغبياء وضعفاء ، وقد تعودنا على القول بأن الإشتراكية شيء حسن ، ولكن الرأسمالية ليست سيئة إلا بالنسبة للاشتراكية ، أما بالنسبة للقرون الوسطى حيث لا تزال روسيا متأخرة فليست الرأسمالية سيئة) (١) .

النظام الرأسمالى :

والنظام الرأسمالى له جوانب اقتصادية وفلسفة خاصة به تتبعها الجوانب الاجتماعية والسياسية ، وهذه أمور لا يمكن التخلى عنها مرة واحدة ، ومتى حللنا عناصرها نجد أن الإقطاع قد تحول إلى الدولة وأن سيطرة الأسرة وشيخ القبيلة تسلمتها الدولة ، ويمتاز النظام الرأسمالى بأنه يترك النشاط الاقتصادى ينمو ويترعرع وله حرية مطلقة فى التوسع ، وما على الدولة إلا أن تتدخل عندما ترفع الظلم وتبعد الإساءة ، ويكره الدكتاتورية الفردية لأنها تضر بمصالحه القائمة على احترام الفرد والاعتزاز بكرامته ، ومتى تدخلت الدولة فى هذا الأمر فقد حرمته حق الحياة وحرية العمل(٢) ، وقد صحب النظام الرأسمالى تقدم سريع فى كل وسائل الإنتاج وتطوير فعال

---

(١) النظام الاشتراكى تأليف راشد براوى ص ٤٦ و ٤٧ القاهرة سنة ١٩٥١ وأسس الاشتراكية العربية ص ٨٤ .

(٢) البراوى ص ٤٧ — ٤٩

فى الأدوات ، وارتفع مستوى الحياة وتقـــدم الإنتاج تقدماً ملحوظاً .
استغلت الطبيعة ومواردها .. فيه أحسن استغلال .

وكان من جراء الرأسمالية ظهور الطبقات المتوسطة (البرجوازية)
والتى كان لها أثر كبير فى حركات وحدة الشعوب ، والتخلص من الاستعمار
والإقطاع وقيام النظم الديمقراطية فى شكل مجالس الأمة . .

وساعدت الرأسمالية فى نشر المدنية فى بقاع لم تصلها يد العمران،وقضت
على جوانب كثيرة من التخلف ، وزرعت الحركات القومية فى الأقطار
المتأخرة .. وعندما احتاج الرأسمالى إلى المواد الأولية أخذ يفكر تفكيراً
عالمياً، فلم يفكر بالاكتفاء الذاتى للأمة وإنما غزا العالم لنشر بضاعته وشراء
المواد الأولية ، وبذلك ذهبت مع البضائع الحضارة الجديدة ، وتوطدت
علاقات كبيرة بين أبناء العالم .

خرج الناس من عصر الزراعة إلى عصر الصناعة والإنتاج . وقد شهد
البيان الشيوعى بفضل الطبقة الرأسمالية والبرجوازية فقال : (وباستثمار
السوق العالمية تصبغ البرجوازية الإنتاج والاستهلاك فى كل الأقطار بصفة
عالمية (١) وتنزع من الصناعة أساسها الوطنى المحلى ، بين يأس الرجعيين
وقنوطهم ، فتنقرض الصناعات الوطنية العتيقة ، أو تصبح على وشك
الانقراض ، وتخلى مكانها لصناعات جديدة يصبح إدخالها وتعميمها مسألة
حيوية لكل الأمم المتمدنة ، صناعة لم تعد تستعمل المواد الأولية المحلية ،
بل المواد الأولية الآتية فى أبعد المناطق وأقصاها التى لا تستهلك منتجاتها
فى داخل البلاد نفسها فحسب بل فى جميع أنحاء المعمورة) (٢) .

وبذلك فقـــد حلت الرأسمالية الصناعية جانباً من مشكلات النظام

---

(١) مترجمة كوسموبوليتية .
(٢) البيان الشيوعى ترجمة خالد بكداش منشورات الفارابى فى دمشق ص ٣٩ .

الإقطاعى . ثم تحدث البيان الشيوعى عن جانب آخر من فوائد الرأسمالية فقال : وتتولد بدلا من الحاجات القديمة التى كانت تكفيها المنتجات الوطنية حاجات جديدة تتطلب لكفايتها منتجات أقصى الأقاليم وأنأى الأقطار ، ولا قيمة ثمة لأمم أو مقاطعات منعزلة تكفى نفسها بنفسها ، بل تتطور التجارة العالمية وتصبح الأمم متعلقة بعضها ببعض أشد التعلق ، وما يقال عن الإنتاج المادى ينطبق على الإنتاج الفكرى ، فمؤلفات كل أمة تصبح ملكا مشتركا لجميع الأمم ، ويصبح من المستحيل أكثر فأكثر على أية أمة أن تظل محصورة فى أفقها الضيق ، ومكتفية به ، ويتألف من مجموع الآداب القومية والمحلية أدب عالمى)(١) .

وبرهن البيان على فائدة الرأسمالية والبرجوازية ومقدار مابذلته من جهد فى تمدين الشعوب المتأخرة وتقدمها فقال :

وتجر البرجوازية إلى تيار المدنية أشد الأمم تأخراً وهمجية ، تبعاً لتقدم أدوات الإنتاج ووسائل المواصلات وسرعة إتقانها ، فإن رخص منتجاتها ، هو فى يدها بمثابة مدفعية ضخمة تقتحم وتحرق كل ماهناك من أسوار صينية ، وتنحنى أمام رؤوس أشد البرابرة عداء وكرهاً للأجانب..) وعدد فوائد الرأسمالية فى إنشاء المدن الكبيرة ، وقضائها على بعثرة وسائل الإنتاج والملكية والسكان ، واضمحلال المقاطعات المستقلة نحو وحدة أكبر ، وذهاب الحدود الكمركية ، واختصر الأمر بقوله :

(بل جمعت كلها ودمجت فى أمة واحدة ، ومصلحة قومية طبيعية واحدة ، وراء حاجز كمركى واحد) ومن فضائلها أنها أخضعت الطبيعة واخترعت الآلات وأخصبت القارات البور وشقت الترع (٢) .

---

(١) البيان الشيوعى ص ٢٩

(٢) البيان الشيوعى ص ٢٩ / ٣٠

مساوئ الرأسمالية :

ولكن الرأسمالية لاتقف عند حد فائدة الشعوب لأن غايتها الأولى المال ، والحصول على المال بكل طريق وبكل وسيلة ، ومن كان هذا ديدنه لا يهمه العدد الأكبر من الناس فكان من جراء هذه الغاية أن سببت الرأسمالية كثيراً من الأزمات العالمية والحروب المستمرة من أجل الحصول على المواد الأوليه ودعم الصناعة وتكديس الأموال ولا يهمها إراقة دماء البشر فى سبيل بناء كيانها الاقتصادى وسعادة الرأسمالى ، وبعد الحروب التى تسببها الرأسمالية تنشر الأمراض والبطالة وبحكم مركزها وقوة نفوذها تؤثر تأثيراً عميقاً فى إفساد نظام الحكم والإساءة إلى الجماهير عندما تريد أن تحمى مصالحها وتحتكر السلع للاستفادة من ارتفاع الأسعار (١).

والرأسمالية بنظر الشيوعية نظام يؤدى إلى إفقار الأكثرية الساحقة من العمال وكلما نمت وتطورت ازداد ثراء جماعة قليلة من الأغنياء ، وأدى هذا الغنى إلى ازدياد الفقر بين عدد كبير من العمال . . ويبلغ الفلاحون فى ظل الرأسمالية الحضيض ، لذلك فهى نظام معاد لمصالح جماهير الشعب من القمة إلى الأخمص وهو نظام استثمار العمال واضطهادهم وهو نظام مفروض بالعنف من قبل حفنة تافهة من الأغنياء على الشعب العامل الكادح(٢) ، ولابد يوماً أن تنتهى الرأسمالية وتسيطر الشيوعية عليها ، وإذا لاحظنا البيان الشيوعى وشرح ماركس وانكلز وجدنا البيان يرى أن الرأسمالية البرجوازية لها جانب سلبى إضافة إلى الجانب الذى ذكرناه ، فإذا قضت على الإقطاع ، ودعت إلى نمو الصناعة ورقيها وازدهارها ، ونشرت المدنية والحضارة فى

---

(١) يلاحظ آراء سيموندى عن الأزمات الاقتصادية وآدم سمث عن المذهب الحر وآراء سان سيمون فى كتب الاقتصاد .

(٢) ماهى الإمبريالية تأليف ارزومانيان ترجمة خلدون عن الألمانيه مطبعة الرابطة بغداد ١٩٦٠ .

كل مكان ، إلا أنها أخذت تستفحل وغدت قوى هائلة لايمكن أن يقف الإنسان أمام تيارها العاتى المدمر ، والرأسمالية كان همها الوحيد رأس المال دون العناية بالبشر ، فتغلبت المصلحة الفردية ولم تبق بين البشر إلا بحراً من الأعداد والأرقام جامدة وأصبح الانسان سلعة من السلع التى تستغلها لمصالحها الخاصة ولإنماء ثروة الرأسمالى .

وقال ماركس وانـكلز :

(وحطمت الصلات المزخرفة التى كانت فى عهـد الإقطاعية تربط الإنسان بسادته الطبيعيين ، حطمتها دون رأفة ولم تبق بين الإنسان والإنسان إلا صلة المصلحة الجافة والدفع الجاف نقداً وعداً ، وأغرقت الحمية الدينية وحماسة الفرسان ورقة البرجوازية الصغيرة فى حياة الحساب الجليدية المشبعة بالأنانية وجعلت من الكرامة الشخصية مجرد قيمة تبادل لا أقل ولا أكثر وقضت على الحريات الجمة التى كلف تحقيقها ثمناً غالياً وأحلت محلها التجارة وحدها ، هـذه الحرية القاسية التى لاتشفق ولا ترحم فهى بالاختصار أبدلت الاستثمار المقنع بالأوهام الدينية والسياسيه باستثمار شائن مباشر فظيع (١)) .

إن هذا القول صادر من محيط أوربا إذ قد استشرت البطالة بين الناس عندما اخترعت الآلات ولما انضم العمال إلى المصانع استغلهم الرأسمالى أسوأ استغلال وأبشعه فكان بؤس العمال مدعاة دعا المصلحين إلى إيجاد حلول لإنقاذ هذه الآلاف من العمال المتعطلين أو العمال البائسين وغدا الجوع شبحاً يخيف الجماهير ثم انخفضت الأجور مما أدى إلى تردى مستوى الشعب ، وكان من جراء الأزمات المالية وتكررها حرق فائض الإنتاج حتى لايخفض

---

(١) البيان الشيوعى ص ٢٧ وأسس الاشتراكية ص ١٩ .

السعر وأصبح العامل يعمل سبع عشرة (١٧) ساعة فى اليوم ويعيش فى منزل تأباه الحيوانات ، كل هذه الأمور التى تفشت فى أوربا وجدت فيها الاشتراكية تربة صالحة، إذتنادى المصلحون إلى ضرورة إصلاح هذا الشعب وإنقاذه. وبحثوا عن أسس وآراء جديدة تنقذ المجتمع الأوربى من هذا الدمار.

والاشتراكيون مجمعون على انهيار الرأسمالية(١) عندما بدأوا يرون تراكم مشكلاتها ، وعدم تساهل الرأسمالى وإيغاله فى مصالحه الفردية وفى تنمية رأس المال . غير أن هذا السلطان الحديدى بدأ يلين وبدأت حدة الإشراف القاسى الرهيب على العمال والمعامل تفتر وتخف مع الأيام ، مع نمو الوعى ضد الرأسمالى . وانتشار الآراء الاشتراكية جعلت الرأسمالى يفكر فى الحفاظ على قسم من موارده المالية خوفاً من أن يفقدها جميعها بعد أن ظهرت قوة العمال فى التكتل والتنظيم ، وبدأت تعمل عملها الواضح الجلى فى الإنتاج وزعزعة مركز الرأسمالى ، فقد تبدلت أمور معاملة العمال والموظفين والمتقاعدين وشرعت قوانين تصون حقوقهم فى حوادث العمل ، واختفت أتوقراطية صاحب المعمل وقساوته(٢) وسرت تيارات الإصلاح بين العمال ، واختلفت العلائق بين صاحب رأس المال والعمال اختلافاً ظاهراً . فقد قال كروسلاند إن المجتمع الرأسمالى اختلف كل الاختلاف عن المجتمع القديم فى صورته وشكله عن عن الرأسمالية التقليدية لا فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية بل فى جميع النواحى الأخرى(٣) ومع هذا التقدم فى معاملة العمال وهذا التطور الواضح الملموس بالنسبة لحالة العمال فى القرن التاسع عشر، فلم ينل العمال فى انكلترا وأمريكا حقوقهم كاملة لأن حقوقهم بالنظر الاشتراكى هى أن يصبحوا هم أصحاب وسائل الإنتاج كله(٣) .

---

(١) أسس الاشتراكية ص ٢٢ .

(٢) مستقبل الاشتراكية تأليف كروسلاند ص ٢٣ و ٣٧ و ٣٩ و ٤٠

(٣) المصدر نفسه ص ٧٦ و ١١١

ماركس :

ولا شك فى أن أهم واضع لأسس الاشتراكية ، هو ماركس فى كتابه رأس المال وقد أراد المفكرون فى كل الأقطار الأخذ بنظريته ، وللماركسية إغراء عام فى بساطتها منهجاً ، وصلابتها النسبية نظرية ، وهى نظرية جاهزة تغنى عن كد الذهن والإبداع فى عالم الإصلاح الجديد تغرى أكبر عدد ممكن من الجماهير وعلى المستوى العالمى ثم إن النظرية الاشتراكية تبدلت من إصلاح اجتماعى يراد به إنقاذ حالة الفقراء والمعوزين إلى خلق دولة تتولى هى القيام بالخدمات الاجتماعية وتقضى على الفقر والعوز الذى يعانيه أكثرية أبناء الشعوب وتحاول أن تعطى أوسع المجالات فى توزيع الثروة وحماية العمال من فتك البطالة وتؤمن لهم الطمأنينة والاستقرار . . وما تبنى المفكرون تحطيم رأس المال بالقوة إلا بعد أن قاوم الرأسمالى حركات الإصلاح ولم يرض أن يوقف من سلطانه غير المحدود خاصه أن أنظمة أوربا وقوانينها كانت قد صيغت لحماية الرأسمالى ومصالحه (١) . . فلا نعجب أن نرى جماهير العمال والمحتاجين ينشرون هذه الآراء بل يستميتون فى الذود عنها لأنها صيغت لتلائم مصالحهم وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية التى استشرى بعدها رأس المال ووصل إلى الملايين، وقد أيد البيان الشيوعى كل حركة ثورية تقوم ضد النظام القائم فى كل بلد فقد جاء فيه : « إن الشيوعيين يؤيدون فى كل قطر من الأقطار كل حركة ثورية ضد النظام الاجتماعى والسياسى القائم ، وفى كل الحركات يضعون فى المقدمة مسألة الملكية باعتبار أنها المسألة الأساسية فى الحركة مهما كانت الدرجة التى بلغتها هذه الملكية فى تطورها »(٢) .

---

(١) مستقبل الرأسمالية ص ١٨ ج ١

(٢) البيان الشيوعى ص ٧٩

وقد كان البيان صريحاً وواضحاً بهدم هذه الأنظمة بالقوة والعنف فقال « ولا يتدنى الشيوعيون إلى إخفاء آرائهم ومقاصدهم ومشاريعهم بل يقول صراحة إن أهدافهم لا يمكن بلوغها وتحقيقها إلا بهدم كل النظام الاجتماعى التقليدى بالعنف والقوة »(١) .

وهذه الرأى نتيجة حتمية للعصر الذى عاش فيه ماركس وانكلز ،فقد كانت الرأسمالية الصناعية فى أشد عتوها وغرورها وكان الصراع مريراً بينها وبين العمال، وهى النتيجة التى تصلها الرأسمالية فى كل قطر من الأقطار ، فقد تطور الفكر الإنسانى تطوراً واضحاً وبدأ الإنسان يعى كيف يستغل الإنسان أخاه الإنسان . وقد تبدلت كثير من المفاهيم والمثل القديمة عندما بدأت الرأسمالية فى مصادرة حرية أصحاب الحرف اليدوية، وقضت على مهنهم واستخدمتهم أجراء ، كما صادرت حرية الفلاحين وأصبحوا عمالا وضاعت قيمة العمل اليدوى الفردى ، إذ لم يكن الحرفى قادراً على مزاحمة الآلة فتحول سكان المدن إلى طبقة جديدة هى الطبقة المتوسطة واستولى قسم كبير منهم على السلطة وسرى الجوع والعوز والفاقة بين العمال ، فلا عجب أن نرى الصراع الطبقى بدأ فى أوربا بين العمال وأصحاب رأس المال .

وقد أخذت روسيا بالنظام الاشتراكى وطبقته على بلادها ثم سارت الصين فى الطريق نفسه وأصبحت الآراء الماركسية قاعدة للاصلاح الاجتماعى ونظاماً للحكم فى دولتين من أكبر دول العالم .

---

(١) البيان الشيوعى ص ٧٩ ، ٧٠

الفصل الرابع

وأخذوا يبحثون عن نظام يوحد شملهم ، وينقذهم من الجهل والتفرق والمرض . وتساءل الكتاب والمفكرون :

هل نأخذ بالنظام الاشتراكى ؟ أم نسير فى ظل النظام الرأسمالى ؟

وكان الشرق العربى قد أخذ بالتيارات الاقتصادية الغربية ، وما فيها من وسائل الإنتاج المادية الجديدة ، وجر ذلك إلى تنظيمات الحياة الاقتصادية وفق نظامها ، نتيجة للنظريات السياسية والاجتماعية ، التى سيطرت على الفكر العربى من جراء انتشار الكتب ، ووسائل الطباعة الأخرى ، وصلات الحكام بالفكر الرأسمالى الأوربى ، واعتناق أساتذة الجامعات ، والمفكرين لهذه النظريات .

غير أن النظام نفسه كان سبباً فى استعمار بلادنا ، وامتصاص ثرواتها ، وتصديرها إلى الغرب ، كما أن العالم الغربى جر علينا الويلات ، والنكبات . فكان مدعاة خيبة أمل عميقة فى النفوس .

والتفت العرب باحثين عن نظام جديد يريدون فيه توحيد شتاتهم ، ورفع مستواهم الاجتماعى ، فرأوا النظام الاشتراكى الذى وحد عدة شعوب تنطق بلغات عديدة فى جمهوريات الاتحاد السوفياتى . والعرب أمة واحدة وفكر واحد ولغة واحدة . فداعب النظام الاشتراكى خيالهم العذب وهتفت به أمانيهم وآمالهم ، وأكد قوة هذا النظام وجدواه اتحاد الصين على اتساع رقعتها ، واختلاف لغاتها ، وتباين شعوبها ، التى وصلت (٧٠٠) مليوناً تحت ظل هذا النظام ، وطردت من بلادها سبعة دول رأسماليه كانت تستعمرها وتستغلها أسوأ استغلال وأبشعه .

إن المظاهر المادية والسياسية التى وجدها المفكرون فى كل من روسيا والصين أغرت كتاب العرب وساستهم على الأخذ بالنظام الاشتراكى ،

ومحاولة تطبيق مايصلح لبلادنا منه بعد أن أخفق النظام الرأسمالى فى بلادنا وجر علينا الإقطاع والاستعمار والتخلف والانقسام ، وخلق الاستعمار الرأسمالى ، حكومات وإمارات فى أرجاء الدنيا العربية .

والعرب من الأمم العريقة، ولها تاريخ عريض حافل بالحضارة، زاخر بالمدنية ، غنى بالتراث الفكرى والروحى والاجتماعى . ويسند هذا التراث مقومات الدين الإسلامى وتعاليمه . . الذى عاش العرب فى ظله فى رفاهية واتسعت عن طريقه آفاق نشر أفكارهم ، حتى شملت أكثر بقاع العالم القديم . .

ولما ظهرت وجهة نظر جديدة لتحقيق الأمانى العربية ، ثار نقاش حول الطريق الذى يجب أن يسير عليه الإصلاح .

فهل يرجع العرب إلى الدين الإسلامى ، وإلى تعاليمه ويصلحون واقعهم المر المتخلف ؟ أم يأخذون بآراء كارل ماركس ولينين ، للسير فى طريق الإصلاح الاجتماعى ؟

رأينا قسماً من المفكرين رفض رفضاً باتاً الأخذ بهذه النظريات باعتبارها نظريات غربية لاتصلح للعرب ، ورأينا قسماً آخر أراد الأخذ من هذه النظريات مايلائم البيئة العربية ، وتعريب مابقى منها وخلق اشتراكية جديدة سميت بالاشتراكية العربية ، ورأينا فريقاً ثالثاً أراد أن يأخذ الاشتراكية العلمية ويطبقها بحذافيرها على المجتمع العربى . فثار الصراع الفكرى وكثر النقاش ، وألفت فى سبيل دعم هذه الآراء الكتب المختلفة . .

ولاحظنا أن النقاش كان يدور حول هذه المفاهيم ، والمثل والنظريات الإقتصادية وضرورة تطويرها ، لتواكب الحضارة الجديدة ، لأن الأسلوب

الواحد الذى تحل فيه مشكلات شعب ، لايمكن أن يكون أسلوباً تحل به مشكلات شعب آخر ، يعيش فى ظروف اجتماعية واقتصادية تغاير ذلك الشعب . ولكل شعب أهداف وغايات تختلف حضارياً وفكرياً باختلاف الشعوب ، فيجب أن تكون الحلول نابعة من المشكلات التى يعانيها الشعب نفسه ، وأن تكون متطورة بتطور الزمن الذى تنبع منه تلك المشكلات .

الدين الإسلامى :

والذين اعتمدوا على إصلاحات الدين الإسلامى عادوا فى إنتاجهم إلى الإسلام وتعاليمه . فرأوا أن أسلوبه فى حل مشكلات المجتمع ، وقيمه الإنسانية ، سايرت التطورات الحضارية فى العالم ، وقالوا إن الفكر العربى استوعب فى أرقى عصوره وأزهاها كثيراً من الفلسفات الأجنبية ، والتيارات التى عاصرته ، فتقبلها وناقش مالا يلائمه بصدر رحب ، وأفق واسع . والدين الاسلامى اعترف بحق الجماهير ، وأعطى السواد الأعظم نصيبه الكامل من الحياة الكريمة ، ولم يخلق امتيازات طبقية فى الشعوب ، ولم يجعل فضلا لأمة على أمة . فقد ساوى العرب حملة الدعوة الاسلامية مع غيرهم من الشعوب .. فلماذا لانرجع إلى القيم الاسلامية والمثل العربية ؟ ونتخذها قاعدة للاصلاح الاجتماعى المعاصر ؟

أما دعاة الاشتراكية الغربية ، فهم يرون أنها أثبتت جدارتها وتجلى نجاحها فى الاصلاح ، وأن العرب فى حاضرهم أمة فقيرة ضعيفة متفرقة جاهلة تسرب إلى تراثهم الحضارى كثير من مفاسد القرون ، ولم تبق المقومات الاسلامية ، والمثل العربية على نصاعتها الفكرية . فينبغى أن يقوم البناء العربى على أسس جديدة ، ليجارى تطورات الفكر الحديث ، والحاجات الحضارية المعاصرة فى الاقتصاد والسياسة والتجارة .

ومن الطريف أن أذكر لكم ونحن نتحدث عن العدالة الاجتماعية ، أورفع مستوى الشعب،أو الاشتراكية ان قسما من مفكرى الغرب يعتبرون العدالة الاجتماعية الاسلامية ، خير نظام يصلح للشعوب لأن عدالة العرب بعدت عن خطايا الغرب فقد قال الاقتصادى الفرنسى فردريك لوبيه la Play عن القرن التاسع عشر: (لقد صان العرب أنفسهم من مثل خطايا الغرب ، فيما يمس رفاهية طبقات العمال ، وهم الآن ما يزالون يحافظون بإخلاص على تلك النظم العادلة ، التى سنوها والتى يسود فيها السلام بين الغنى والفقير ، وبين السيدوالأجير ، وليس من المبالغة فى شىء من القول بأن ذلك الذى يزعمه الأوربيون أنهم يرغبون فى إصلاحه ، وتمدينه هو فى الحقيقة خير مثال يقتدون به فى ذلك(١) » .

ومن أهم الكتب التى ألفت فى دعم فكرة الاشتراكية الإسلامية أو أغناها وأكثر إحاطة بالموضوع ، أو استيعاباً لهذه الفكرة ، كتاب المرحوم مصطفى السباعى،ويمكن أن أعرض لكم فكرة الكتاب التى استند فيها على القرآن الكريم وعلى أحاديث الرسول وأعماله .

والذى لا مجال فى مناقشته.أن الاشتراكية تستهدف معالجة مشكلات الفقر والجهل ، أو الضمان الاجتماعى للسواد الأعظم من الأمة، أو الشعب بصورة أجلى ، وقد حل الدين الاسلامى هذه المشكلات ، وقد خلا مجتمعه منها ، ولم يحلها بالصدقة والرحمة والاحسان، إنما بالتشريع الاسلامى الذى ضمن كرامة المحتاج ،وابعده عن ذل السؤال ولو طبقت اشتراكية الاسلام أو تعاليم الاسلام ، كما جاءت فى الصدر الأول،لحلت كثيراً من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، التى يعانى منها مجتمعنا الحديث والتى تشمل جميع أبناء الدولة ، دون النظر إلى أديانهم وأجناسهم،لأن تعاليم الدين الاسلامى

---

(١) جباد ص ٩٨ ولاحظ راى كوستاف لوبون على الصفحة ٩٩ .

وضعت لجميع المواطنين ... والاعتماد على نظام مألوف للشعب وواضح الفكرة فى أذهانهم أسهل من التعويل على آراء وتيارات فكرية واقتصادية واجتماعية ، تحتاج إلى وقت حتى تصبح مألوفة وواضحة. والدين الاسلامى أصبح عقيدة ودخلت فى اللاشعور، فلا تلزم المفكر المسلم العناء الذى يعانيه عندما يدرس الآراء الجديدة . وقد حل الدين الاسلامى مشكلات المسلمين طوال العصور والقرون الذهبية . والقرآن الكريم يقول وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، والاشتراكية الغربية جاءت بعد قرون فقالت : لكل إنسان حسب قدرته وطاقته وحاجته ، وقد دعا الاسلام إلى ضرورة تأميم المواد الضرورية التى يحتاج إليها الشعب ، كيلا تكون تحت رحمة المحتكرين ، وقال الرسول (الناس شركاء فى ثلاث الماء والكلأ والنار) (١) ومن المتفق عليه أن الرسول حمى أرضاً بالمدينة المنورة ، يقال لها البقيع لترعى فيها خيل المسلمين(٢) وقد حمى عمر بن الخطاب أرضاً بالربذة ، وجعلها مرعى لجميع المسلمين . أى أن الخليفة عمر بن الخطاب أمم المنطقة ولم يتركها لجماعة من المسلمين تنفرد بالاستفادة منها . فاستغرب أهلها من عمل الخليفة، لأنهم كانوا قد احتكروا هذه الأرض قبل الاسلام لأنفسهم . وأسلموا وهم يحتكرونها فذهبوا إليه قائلين :

يا أمير المؤمنين، إنها بلادنا قاتلنا عليها فى الجاهلية ، وأسلمنا عليها فى الاسلام علام تحميها ؟

وأطرق الخليفة باحثاً عن الجواب ثم قال :

---

(١) اشتراكية الأسلام ص ١٠١ يلاحظ الأحاديث التى اعتمد عليها والمصادر التى أورد نصوصاً منها لاحظ سند الأحاديث أيضاً .

(٢) المصدر نفسة ص ٨٣ وقد كتب الشيخ عبد العزيز البدري رسالة عن الاسلام تعرض فيها للاشتراكية .

المال مال الله، والعباد عباد الله — والله — لولا ما أحمل عليه من سبيل الله ما حميت من الأرض شبراً .

فقد رأى الخليفة ضرورة إشاعة هذه الأرض ، ورأى حاجة المسلمين جميعهم إليها وقد اعتبر الأرض ملكا أشاعه الله لعباده، فكيف يحرم جزءاً منه ويترك جزءاً من المسلمين يتمتعون بالخيرات دون سواهم .

ولم يكتف الإسلام بإشاعة الموارد العامة ، إنما منع استغلال الطاقات البشرية ، وسرقة أتعاب العمال ، وتوعد النبي بالعقاب كل من يسرق أجر العامل ، فقال :

(أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه) وقال الرسول (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، رجل أعطى ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً استوفى منه ولم يعطه أجره) .

وللعقيدة أثر كبير فى تطبيق أى نظام فى الدنيا فالمؤمن يطبق التعاليم دون أن يخاف سطوة الدولة ، ويبادر إلى تنفيذ أوامرها دون أن يرهب القانون ، لأن إيمانه وعقيدته تدفعانه إلى المبادرة والتطبيق ، فقد كان المسلم يدفع الزكاة للمستحقين ويخرجها من ماله طوعاً ورضا، ولا من يحاسبه إلا ضميره ، وشعوره الدينى وإيمانه الخالص . وشتان بين إنسان يدفع المال ويطبق الشريعة لا شعورياً راضياً مسروراً ، وبين إنسان يدفع الضرائب خوفاً من طائلة القانون ، فهو يحاول جهده أن يسوف ويماطل ويهرب أمواله ، ويغش فى حسابه ليدفع أقل كمية ممكنة ، وعندما يأمن المحاكم يتوقف عن الدفع ، لأنه يدفع رهبة وخوفاً من السجن أو مصادرة الأموال أو العقاب المالى .

وقد كان المسلم يدفع ما عليه من زكاة بدافع من إيمانه ، لأن الدين

جعل فى أموال المسلمين حقاً للسائل والمحروم، ومنع طغيان المال على المجتمع، وقال تعالى (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم وأنفقوا مما جعلناكم مستخلفين فيه كيلا تكون دولة بين الأغنياء منكم وكان من جراء هذا الايمان والعمل على تطبيق تعاليم الدين الاسلامى، والأخذ بها أن أنفق الأغنياء أموالهم على الفقراء، حتى جاءت فترة عمر بن عبد العزيز فلم يجد المسلمون بينهم فقيراً يطلب الصدقة، أو احتاج إلى معونة.

وما مات عمر بن العزيز حتى جعل الرجل يأتى بالمال العظيم ويرجو أن يجد الفقراء المحتاجين فما يبرح حتى يرجع بماله، لأنه لم يجد من يضع فيه المال، لأن النظام الاسلامى قد أغنى الشعب على يد عمر بن عبد العزيز(٢) الذى طبق تعاليم الاسلام.

ولم يكن الأمر مقصوراً على فقراء المسلمين، إنما شملت هذه الرعاية الاجتماعية النصارى واليهود، كما شملت المرضى والأصحاء على حد سواء فقد جاء فى فتوح البلدان للبلاذرى :

ان عمر بن الخطاب لما سافر إلى الشام مر فى طريقه بقوم مجذومين من النصارى، فأمر أن ينفق عليهم من بيت المال، وبأن يجعل لكل واحد منهم من يخدمه، ويقوم على شئونه(٢) لأن المريض لا يقدر على خدمة نفسه ورعايتها.

وقد ضمن الدين الاسلامى التكافل الاجتماعى للشعب، وضمن حاجات المواطنين فقد جاء فى الخراج لابى يوسف أن خالد بن الوليد، عندما قاد معارك العراق أعلن التأمين الاجتماعى لأهل الحيرة المسيحيين. فقد وجدنا فى نصوص المعاهد التى عقدت بين الطرفين النص التالى (وجعلت لهم أيما شيخ

---

(١) اشتراكية الاسلام ص ٢٢٦ والبدرى ص ٢٩ .

(٢) اشتراكية الاسلام ص ٢٠١ .

ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقاموا بدار الإسلام) .

وقد فرض عمر بن الخطاب الضمان الاجتماعى من بيت المال ، لليهود الفقراء وكفاهم ذل السؤال فقد مر يوماً بشيخ يهودى كبير ، وجده يستجدى الناس ، فلما رآه انتبه إليه وسأله :

ما أنت يا شيخ ؟

قال : ذمى يسأل الجزية والصدقة . أو قال له إنها الحاجة والجزية والسن . فاهتز عمر بن الخطاب لمنظره ، وساءه أن يرى شيخاً يستجدى ليقدم الجزية .

فقال له :

ما أنصفناك ، أكلنا شبيبتك ، ثم نضيعك فى هرمك .

ثم أخذه إلى بيته وأعطاه ما وجده ، ثم أرسله إلى خازن بيت المال وقال له :

أنظر إلى هذا وضربائه ، فافرض لهم من بيت المال ما يكفيهم وعيالهم إنى وجدت الله يقول : إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والفقراء هم المسلمون والمساكين هم أهل الذمة(١) .

وقد كان الرسول الكريم خير قدوة يقتدى بها المسلمون ، وقد وجدنا فى أعماله خير مثل فى مشاركة الشعب سراءه وإبعاده عن البطر والترف ،

---

(١) اشتراكية الاسلام أخذه من الخراج ص ١٢٦ واعتمد عليه البدرى فى ص ٢٠

فقد كان يفرض على نفسه البساطة والخشونة فى العيش ليبعد المسلمين عن مظاهر الترف، فقد روى انه جاء بيت ابنته فاطمه الزهراء ليزورها، لكنه عدل عن الزيارة ولم يدخل الدار ، فلما أحست بالأمر بعثت الإمام علياً تستجلى أمره ، وتسأله عن سبب عدوله عن زيارتها فأجابه الرسول :

إنى رأيت على بابها ستراً موشياً

فعاد الامام على وأخبر فاطمة الخبر ، فقالت :

ليأمرنى بما شاء .

فقال عليه السلام :

ترسلى به إلى فلان ، أهل بيت بهم حاجة .

وعدل مرة عن زيارتها فلما استفسرت عن سبب امتناعه عن الزيارة قال :

إنى وجدت فى يديها سوارين من فضة .

فبلغها الأمر فأرسلتهما إليه فباعهما بدرهمين ونصف ، وتصدق بها على الفقراء .

فليت شعرى كم من قادة الاشتراكية ، والمسلمين، فى وقتنا الحاضر من يرضى أن يطبق على أسرته وقرباه ما طبقه الرسول على أسرته وذوى قرباه؟

الغزالى :

ويمكننا أن نأتى برأى الغزالى لأن فيه تلخيصاً واضحاً عن العدالة الاجتماعية التى سنها الإسلام قال الغزالى فى المستصفى(١) :

---

(١) المستصفى ج ١ ص ٢٨٧ المطبعة الأميرية القاهرة ص ١٣٣٢ واشتراكية الاسلام ص ٣٦

(أن مقصود الشرع خمسة : وهو أن يحفظ عليهم دينهم ، وأنفسهم ، وعقلهم ، ونسلهم ، ومالهم ، فكل ما يتضمن هذه الأصول الخمسة هو مصلحة . وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة ..)

الحرية والاشتراكية :

العرب قوم يحبون الحرية ، فقد ألفوها واعتادوا عليها ، ونشأوا فى ظلالها وجاء الدين الإسلامى متسقاً مع هذه الرغبة ، فقد حفظ للناس حرية النقاش والقول ، وابداء الرأى بصراحة دون مواربة أو خوف ، وقد أوجبت تعاليمه الشورى ففى آيات القرآن الكريم: «وشاورهم فى الأمر» «وأمرهم شورى بينهم» بل جعل ابداء الرأى فى تقويم المعوج فرضا على كل مسلم ، فقد جاء فى الحديث (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان . .) فقد أوجب العمل المباشر أولا، وفرض ألا يقبل المسلم ، حتى مع نفسه ، المنكر ، فيجب أن يحتج بقلبه ولا يجعل للمنكر سبيلا يرضاه وجدانه ، وقد أكد هذه الحرية الخليفة الأول أبو بكر الصديق ورأى ضرورة تقويم أخطاء السلطة فى شخصه ، وان تعاون السلطة على العمل الطيب لتشعر بمشاركة الشعب لها وتأييده لها. وقد أوجب الدين الإسلامى الثورة على الحاكم الجائر ، ونقض طاعته لأن الجور يتنافى مع المصلحة العامة ، ولا طاعة لمخلوق مهما ارتفع قدره فى معصية الخالق جل وعلا .

ومن هذه الحرية الواسعة المساواة التى وجدت فى صلب تعاليم الدين الاسلامى بين جميع البشر، دون تمييز فى اللون أو الجنس فقد قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير)(١) فقد ساوى الإسلام

(١) الحجرات ١١ ــ ١٣

بين جميع المسلمين وفرض أن يساوى المسلم اخاه بنفسه ، والا فيعتبر المسلم الذى لايساوى اخاه ـ بما يحب لنفسه ـ ناقص الإيمان ، فلايؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه .

ويرى كتاب اشتراكية الإسلام ان الدين الاسلامى نظام متكامل ، وفيه كل اسس الاصلاح الاجتماعى التى تسعد ابناء الشعب كاملة شاملة ، لأن تعاليمه تضمن الحاجات الاساسية لكل فرد ، وتعمل على رفاهيته وسعادته ، ومن الضرورى الأخذ بتعاليمه تطبيقها على المجتمع المعاصر ، وليس العيب فى الدين الاسلامى إنما العيب فى الطريقة التى اتبعت فى تطبيق هذه التعاليم .

فللاصلاح سبل خاصة تميزت بعدالة التشريع ، الضامن للطمانية النفسية الدائمة التى تنبع من وجدان المؤمن دون خوف من سلطات خارجية ، فهو يطبق التعاليم الاسلامية وينفذها عبادة وتقرباً إلى الله ، وبذلك يصبح التعاون بين السلطة والشعب قوية ، ويمكن محاسبة المسىء وردع المخطىء وتطبيق الأحكام بسهولة ويسر .

وصدر فى بغداد (الاسلام ضامن للحاجات الأساسية لكل فرد يعمل لرفاهيته) (١) وفى هذا نجدا التقاء واضحاً مع كتاب الاستاذ السباعى وقد عول فى رأيه على تفسير المنار للمرحوم رشيد رضا .

فى شرح قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم . .) ورأى أن الآية قررت قاعدة الاشتراك التى يرمى إليها الاشتراكيون واخذ من التفسير (. . . اضاف الأموال إلى الجميع فلم يقل لا يأكل بعضكم مال بعض للتنبيه على ما قررناه مراراً

---

(١) تأليف الشيخ عبد العزيز البدرى .

من تكافل الأمة فى حقوقها ومصالحها ، كأنه يقول إن مال كل واحد منكم هو مال امتكم ، فإذا استباح أحدكم أن يأكل مال الآخر بالباطل ، كان كأنه اباح لغيره أكل ماله ، وهضم حقوقه . لأن المرء يدان كما يدين . . . وصاحب المال الحائزله يجب عليه بذله للمحتاج فكما لايجور للمحتاج أن يأخذ شيئاً من مال غيره بالباطل ، كالسرقة والغصب ، لايجوز لصاحب المال أن يبخل عليه بما يحتاج إليه . .)(١) وقد شرح الأستاذ البدرى وجهة نظره بقوله (واقول زيادة فى البيان إن مثل هذه الاضافة قد قررت فى الاسلام قاعدة الاشتراك ، التى يرمى اليها الاشتراكيون فى هذا الزمان ولكنهم لم يهتدوا إلى سنة عادلة فيها ولو التمسوها فى الاسلام لوجدوها، ذلك بأن الاسلام يجعل مال كل فرد من أفراده المتبعين له مالا لأمته كلها ، مع احترام الحياة والملكية ، وحفظ حقوقها ، فهو يوجب على كل ذى مال كثير ، حقوقاً معينة للمصالح العامة) والاستاذ البدرى يرى ضرورة تطبيق تعاليم الدين الاسلامى لأنه إذا تم التطبيق ارتفعت ضرورة كل مضطر ، فيقول(... والبلاد التى يعمل فيها بالاسلام لايوجد فيها مضطر إلى القوت ... سواء كان مسلماً أو غير مسلم ، لأن الاسلام يفرض على المسلمين فرضا قطعياً) أن يزيلوا ضرورة كل مضطر كما يفرض حقاً آخر للفقراء والمساكين ومساعدة الغارمين ...)(٢)

ومن الداعين إلى اشتراكية الاسلام الأستاذ عبد الغنى سعيد فى كتابه (الاسلام والأصول الفكرية للاشتراكية) أرجوأن يراجع ..ونلاحظ أن اكثر الداعين لها يرون ان اشتراكية الاسلام أو تعاليم الدين الاسلامى فى الاصلاح الاجتماعى لم تطبق بكاملهاإلافىعهد المسلمين الأوائل

(١) تفسير القرآن الكريم ، للأستاذ محمد عبده ص ٣٠٩ الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ

(٢) يدرس رأي الاستاذ محمد عبده كله .

ولما تعرض الاسلام للنكسات الخطيرة قضى على المعالم التطبيقية الاشتراكية، بعد أن تحول الاسلام من نظام البيعة إلى نظام الوراثة ، ولما جاءت مفاهيم الرأسمالية والبرجوازية والاشتراكية إلى العرب كانت المفاهيم الاسلامية قد تغيرت فى التطبيق ، وبعدت عن الاصول الصحيحة ، فرددها للعرب لعدم معرفة دينهم وتعاليمه الصحيحة لابتعادهم عنه (١) .

الافغانى والاشتراكية الاسلامية :

وجمال الدين الافغانى راى واضح فى ضرورة العودة إلى اشتراكية الاسلام لانها (ملتحمة مع الدين الاسلامى ملتصقة فى خلق اهله ، منذ كانوا أهل بداوة وجاهلية) وراى الصحابة هم أول من عمل بالاشتركية وطبقها اكابر الصحابة، ورجع بها إلى التاريخ العربى قبل الاسلام وقال إن الاشتراكية من خلق البداوة ، وضرب مثلا بحاتم الطائى الذى ذبح فرسه ليطعم صبية جائعين من قبيلة طئ وبطلحة الطلحات الذى جهز ألف فارس وقال :

(هذا مثل من الاشتراكية قبل الاسلام ، ومنه يعلم أن الثروة كانت ولاتزال موجودة فى الافراد ، ولكن حسن استعمالها ، وجعل الاشتراكية أمراً مقبولا ، وصفة ممدوحة اذ لا انانية ولا أثرة ولااستطالة على الفقير بخيول مطهمة يستأثر بها ، ولا بطعام شهى يلتذ به مع لفيفه ، ولا ببناء شاهق يسكن فيه ، بينما موجد ومسبب ومهيء تلك النعم كلها ، ذلك العامل الفقير الذى يسكن كوخا صغيراً . نصف اعضائه وابنائه فى خارجه ، عرضة لصبارة القر ، وأوارة الحر ، لا يملك من القوت خبزا كافياً ، ولا من الملبس ما يستر به تمام العورة) (٢) .

---

(١) الاسلام والاصول الفكرية للاشتراكية طبع فى القاهرة .

(٢) خاطرات جمال الدين الافغانى الحسينى جمع محمد باشا المخزومى ص ١٨٩-١٩١

ورأى الافراط فى الثروة هو الذى استنفر العمال فطالبوا بالاشتراكية، وقد حذر الافغانى من سوء العاقبة ، ورأى فى اشتراكية الاسلام ما يضمن الاستقرار والطمأنينة وقد برهن الافغانى على اشتراكية الاسلام بالمساحة التى شملت المصلحة العامة ومدح تعاليم الاسلام التى تحث المسلم على المساواة دون فرق بين غني وفقير وتحدث عن ظهور ابي ذر الغفاري وختم رأيه بقوله :(١)

« وكل اشتراكية تخالف فى روحها واساساتها اشتراكية الاسلام ... فلا تكون نيتجتها الا ملحمة كبرى ، وسيل الدماء ولاسيل العرم من الابرياء ، وهى تخريب لبناء لايشاد عليه شيء ينتفع به احد من الخلق . نعم يستفيد من يلوك بلسانه كلمة الاشتراكية ، ويجعلها احبولة صيد ، وهى كلمة حق يراد بها باطل ، اكرر القول ان اشتراكية الاسلام هى عين الحق ، والحق احق أن يتبع) .(١)

وكل ما ارجوه أن ترجعوا إلى خاطرات الافغانى لدراسة رأيه فى الاشتراكية، بين الصفحات ١٨٩ إلى ٢٠٤ وقد صدر كتاب (الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى) مع دراسة عن حياته آثاره ، بقلم محمد عمارة وكنت اتمنى أن تطبع الأعمال كاملة وبالشكل الذى ظهرت فيه منفصلة فلو فعل السيد عمارة ذلك لكان ادى خدمة كبيرة فى خدمة الرجل والفكر العربى لا سيما وأن كتبه اصبحت نادرة ولكن توزيع اعماله بالشكل الذى ظهرت فيه اضاع كثيراً من فائدتها المرجوة .

- (١) خاطرات الافغانى ص ٢٠٣ و ٢٠٤ .

الاشتراكية العربية :

كنت أرجو أن أفرد فصلا أو محاضرة من محاضرتى لكم عن الاشتراكية العربية ، فقد وجدت فى القاهرة كتباً ومقالات ألفت فى هذا السبيل لم أطلع عليها وكنت أتمنى أن أمر بالميثاق لأعرض المراد بالاشتراكية التى تضمنها الميثاق، لكننى سأترك لكم مرة أخرى أمر التفاصيل ومالم تسمح به ظروفى فى عرضه لكم. لأنى دأبت على أن أثير الموضوعات لطلابى ، وأدلهم على الطريق والطالب المجد هو الذى يجب حتى يصل الهدف ، ولأنى أعتقد بأن الدراسات العالية ليست تلقيناً بمحاضرات تلقى، وطلابا يكتبون ثم يحفظون المحاضرات ولكننى سأضع لكم قائمة باسم بعض كتب الاشتراكية المطبوعة لتستفيدوا منها ويستفيد غيركم ليقدموا الامتحان فيها لكى يحوزوا مرتبة النجاح . إنما الطالب المتميز من ظهرت شخصيته ونمت قابليته الفردية وديدنى أن أربى فى الطالب الفكرة المتميزة والشخصية القوية العلمية الواعية ، فاعتمد على النقاش وعلى إثارة الموضوعات ، أو أترك لطلابى حرية التتبع وإبداء الآراء ومخالفة ما اعتقده .

ولا بد أن أقول وأنا بصدد التحدث لكم عن الاشتراكية العربية إن هناك عدة أسئلة أثارها المعارضون ، فقد قال قسم منهم إن الاشتراكية هى اشتراكية غربية ، وليست هناك اشتراكية عربية، أو سخر منهم من سخر ، وقال إن نقطة (غربية) سقطت فأصبحت (عربية) وفات هؤلاء الميزات التى تختلف بها الاشتراكيه العربية ، عن الاشتراكية نفسها بل فاتهم أن الاشتراكية نفسها ، أدخلت فى عدة أطوار، واختلفت باختلاف الأزمان والأمكنة . فإذا قارنا اشتراكية ماركس وانكلز مع ما عمل لينين لوجدناه قد طورها بوعى أراد فيه مصلحة الشعب السوفييتى ، ثم جاء ستالين فأدخل عدة أمور عليها وجاء بعد ستالين جماعة طوروها إلى ما يلائم القرن العشرين، والمرحلة التي وصل إليها الاتحاد السوفياتي من التقدم والحضارة والرقي .

وحتى فى الدول الاشتراكية نجد اختلافين ظاهرين بارزين، فقد كنت فى الصين ورأيت التقدم الصناعى والاجتماعى الذى طرأ على الصين الشعبية فكان التقدم مدعاة إعجابى وتقديرى لا سيما هذه الوحدة الصينية الكبيرة، التى شملت ٧٠٠ مليوناً من أبناء الصين الشعبية، فهل بقيت الاشتراكية على ما كانت عليه فى عهد كارل ماركس؟ وجمد قادة الفكر الصينى عند تعاليمه ولم يطوروها؟ الواقع غير هذا فإن زعيم الصين الشعبية وبانى كيانها ماوتسى تونك قد طور الاشتراكية تطويراً يلائم وحياة الصين وظروفها، ومواردها الطبيعية، فخلق منها صيناً جديدة، فى ضوء هذا التطور حتى قال عنه الصينيون إنه قمة الماركسية اللينينية الستالينية وهى ماوصلت إلى القمة إلا نتيجة لفكر ماوتس تونك وإبداعه. ومادام بالإمكان تطور الاشتراكية فى البلاد الشيوعية فأحر بنا أن نطورها مع ما يلائم الفكر العربى والحياة الاقتصادية، والموارد الطبيعية والبيئة العربية. ولهذا وجدنا اختلافاً فى مفاهيم الاشتراكية فى بلادنا العربية، ينبع هذا الاختلاف من اختلاف النظرة للاشتراكية نفسها.

وسأعرض عليكم بعض الآراء التى تيسرت لى فى الكتب التى توفرت لدى، وسأحاول معكم أن أجد تعريفاً واضحاً للاشتراكية العربية، والميزات التى تميزها عن الاشتراكية الغربية، عندما تطورت وواكبت المسيرة العالمية للفكر. لا سيما وقد تبنت هذه الآراء بعض الأحزاب العربية واعتنقتها.

وأول هذه الآراء قول مفكر معروف هو (إذا سئلت عن تعريف للاشتراكية، فلن أنشده فى كتب ماركس ولينين، وإنى أجيب أنها دين الحياة، وظفر الحياة على الموت فهى بفتحها باب العمل أمام الجميع، وسماحها لكل مواهب البشر وفضائلهم أن تتفتح وتنطلق وتستخدم، تحفظ ملك الحياة

للحياة ولا تبقى للموت إلا اللحم المظم الجاف ، والعظام النخرة(١) .

ولنقرأ المفكر رأياً آخر فى كتاب طبع قبل هذا الكتاب سنجد اختلافاً واضحاً فى التعريف والمفهوم فقد قال فى تعريف الاشتراكية (... إن الاشتراكية ليست أكثر من نظام اقتصادى ، مرن متكيف مع حاجات كل أمة، وليس بعسير على العرب إذا ما تخلصوا من كابوس الشيوعية أن يهتدوا إلى اشتراكية عربية مستمدة . من روحهم ، وحاجات مجتمعهم، ونهضتهم الحديثة، تقتصر على إيجاد تنظيم اقتصادى معقول عادى ، يحول دون الأحقاد والنزعات الداخلية ودون استثمار طبقة لأخرى ، وما ينتج عنه من فقر وجهل وشلل عدكبير من أفراد الشعب العربى وهكذا تكون الاشتراكية خادمة للقومية العربية، أو عنصراً هاماً فى بعثها وتحقيقها...(٢) والملاحظ أن المفكر نفسه جعل الاشتراكية خادمةالقومية العربية ، أى أن الاشتراكية تعين القومية العربية على إعادة مجدها وخلقها من جديد أو هى عامل مساعد قوى فى هذا البعث والوجود الجديد ، ثم إن المفكر نفسه قال فى مقال آخر من الكتاب نفسه ، إن الاشتراكية هى القومية العربية .

(ويمكننا أن نقرر بأن القومية العربية مرادفة للاشتراكية ، وقال فى الصفحة نفسها (... القوميون العرب هم الاشتراكيون ..)(٣) والواقع لا يتفق مع المفكر لأن قسما من القوميين لا يؤمنون بالاشتراكية سبيلا لتحقيق الوحدة العربية ، ومنهم من يرى السبيل إلى الوحدة هوالمثل الذى ضربته ألمانيا وإيطاليا فى وحدتها يوم لم تكن هناك اشتراكية .

وقد آمن كاتب آخر بضرورة وجود اشتراكية عربية فى الوطن العربى

---

(١) فى سبيل البعث ، ميشيل عفلق ، ص ٢٦ طبع سنة ١٩٦٣ .

(٢) فى سبيل البعث ص ١٩٧ طبع سنة ١٩٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٢ طبعة سنة ١٩٤٦ ولاحظ الصفحات ٢١٤ و ٣٤٥ و ٣٤٦

فقال (. . . نعم يمكن أن توجد اشتراكية عربية) ، بل لا يمكن أن توجد إلا اشتراكية عربية فى الوطن العربى . . .)(١) .

ولا جدال فى أن كل أمة عالجت مشكلاتها الاجتماعية والاقتصادية بضوء نظام من الأنظمة ، وعالج قسم من العرب هذه المشكلات فى ضوء الاشتراكية ، وقد كانت الأمم تضع نصب عينها الظروف الخاصة التى تحيط بها ، والمفاهيم التى عاشت عليها ، وتاريخها وحضارتها ، ثم تقنن نوع الاشتراكية والسبيل التى تطبق بها مفاهيمها ، فطابع التطبيق عند الشعب الانكليزى ، لا يطابق السبيل الذى طبقت فيه فرنسا مفاهيمها الاشتراكية ، والتجربة الاشتراكية فى الاتحاد السوفياتى لا تلائم التجربة التى قام بها زعيم الصين ماوتسى تونك ، بالرغم من أن مصدر التجربتين واحد ، وقد عاونت روسيا على تقدم الصين وساعدتها بكل ما لديها من طاقة ، ولكن الصين الشعبية ، رأت أن يكون لها تطبيق يتلائم مع البيئة الصينية ومسار الصين ، وظروفها الخاصة . ولم يمنع نظرية الاقتصاد الماركسى العامل المشترك بين الأمتين ، من وجود اختلاف فى التطبيق ، أدى إلى الفرقة والقطيعة بين الدولتين الاشتراكيتين ، ولا أجد ضيرآ من هذا الاختلاف، فالفارق الجغرافى والتاريخى والانتاجى فى روسيا السوفياتية يختلف عنه فى الصين الشعبية ، ولأن الظروف التى تمت بها الثورة فى الصين لم تكن الظروف نفسها فى الاتحاد السوفياتى .

وقد دخلت الاشتراكية فى البلاد الرأسمالية ، وبذلك أثيرت معركة بين المفكرين خاصة فى انكلترا وفرنسا، بعد أن وعى العمال مقدار الفائدة التى يجنيها أصحاب رؤوس الأموال ، وبعد أن تسربت الآراء الاشتراكية

---

(١) أسس الاشتراكية العربية ص ١٥ تأليف الدكتور عصمة سيف الدولة

بينهم ، فرأوا أن تراكم رؤوس الأموال لم يكن إلا حصيلة العمل المتواصل الذى قدموه فاختلفوا مع أصحاب رؤوس الأموال ، وطالبوا بزيادة الأجور وكثرت الإضرابات فى المعامل والمصانع على اختلاف أنواعها ، ولم تكن هذه الإضرابات إلا سبباً للاختلاف الناجم من التفاوت المعاشى بين الأغنياء المترفين ، والطبقة المتوسطة ، رغم وجود الرخاء والرفاهية بين طبقة العمال ، من جراء الغنى الفاحش الذى جاءهم من سيطرتهم الاستعمارية على الدول النامية .

وقد اختلفت الاشتراكية التى دخلت إلى انكلترا عنها فى الدول الاشتراكية لاختلاف الظروف التى وصلت فيها الفكرة الى انكلترا وفرنسه فهل يمكن أن تطبق الاشتراكية الموجودة فى الاتحاد السوفياتى على بلد رأسمالى مثل انكلترا ؟ ! ومتى طبقت معناه قلب النظام السياسى والاقتصادى كله وهذا ما لم يقبله الشعب الإنكليزى المحافظ ، لذلك وجدنا العمال الإنكليز أنفسهم ينظرون إلى جوانب لم يرها المفكرون فى الدولة الاشتراكية ، وهذا هو الذى أوحى إلى الكتاب بأن الاشتراكية عقيدة غير راسخة ، فقد قال تاونى R. H. Towney (...إن الاشتراكية كغيرها من التعبيرات المختلفة للقوى السياسية المركبة ، كلمة لا تختلف فى مدلولاتها من جيل إلى جيل فحسب ، بل من حقبة إلى حقبة ...) ويوضح الأستاذ كول التناقض الظاهر فى الاشتراكية ، بين قطر وآخر وجيل وما بعد بقوله (. . . ولم يكن التباين فى العقيدة نتيجة اختلاف الزمن فحسب ، بل كان هناك تناقض بين الصور المختلفة التى وجدت فى عصر واحد...)(١) فلا غرابة أن وجدنا التناقض والاختلاف فى الصور نتيجة لاجتهادات المفكرين ، ودارس الاشتراكية يجد مثل ذلك فى الأوربية ، والماركسية

---

(١) مستقبل الاشتراكية ص ٩٢

والاشتراكيه المسيحية ، والفابية . وسيجدها واضحة بين الاشتراكية العربية وغيرها من تطبيقات النظرية الاشتراكية فى كثير من الأقطار . وقد يكون هذا التباين جوهرياً ، تتنافر عنده الشعوب وتتصارع فيه أقلام المفكرين فى إثبات أى التطبق الاشتراكى هو الصواب ، مما أدى إلى أن يكون الاشتراكيون أنفسهم أعداء لأنهم يأخذون بالاشتراكية تطبيقاً مختلفاً ، وهذا طبيعى فى فهم الاشتراكية ولأن كل شعب أخذ ما رآه ملائما لحاجاته الاقتصادية والاجتماعية منها حتى تعذر على المفكرين أن يجدوا تعريفاً يتفق عليه الكتاب جميعاً فى مختلف الشعوب، لأنها مبدأ حى ما زال يتطور ، ولأنها حوت آراء وجدانية وآراء عقلية يصعب أن نحصرها فى تعريف واحد . لا سيما أن قسما من المفكرين يرجع الاشتراكية إلى عصر أفلاطون . ومن التعاريف اللطيفة قول برنارد شو (. . . إن الاشتراكية جنة الكفاءة ، وديمقراطيتها تنزع الصناعة من أيدى المتوحشين الأغنياء)

وارجع قسم من كتاب العرب جـــذور الاشتراكية إلى مئات السنين ، وقالوا إن الاشتراكية العربية ظهرت قبل الاشتراكية الغربية ، وأنها جزء من تراث العرب القومى ، وعند ما بعثت القومية العربية فى شكلها الثورى الحديث ظهرت معها الاشتراكية العربية ، ورأى أن الاشتراكية العربية هى اشتراكية الإسلام ، وهذه الاشتراكية ليست متعصبة وهى ديمقراطية تعاونية وأنها تتفق مع النظرية الاشتراكية فى أحدث أطوارها(١) ، ونجد كاتباً آخر يوضح ماهية الاشتراكية العربية بقوله : (... والاشتراكية أخلاقية من حيث أساسها، وعربية من حيث تركيبها ، إنها تنظيم اقتصادى يمنع فيه الاستغلال ، وتقدس كرامة الإنسان ويزول الفقر والمرض والجهل ، ويوفر للجميع حداً أدنى من المعيشة ،

---

(١) الإسلام والأصول الفكرية للاشتراكية العربية ص ٣١ و٣٦ و٣٩ و٤٨ و ٤٠

وهى عربية بمعنى إنها التنظيم الملائم للنهضة القومية ، والطريق الضرورى لتحقيق القومية ...) (١) ويؤكد مفكر أن الاشتراكية هى التى ستأخذنا نحو الوحدة العربية ، ولكن كما قلت لكم إن شواهد التاريخ وقسماً من الوحدويين يرون أن وحدة الولايات المتحدة ، وألمانيا وإيطاليا ، تمت قبل أن تظهر الاشتراكية فى شكلها الغربى المعاصر .

ونحن لا يهمنا التعريف ولاتهمنا أقوال المفكرين ، بقدر ما تطبيق الفكرة الاشتراكية فى بلادنا وخدمة ، شيئين مهمين للعرب : الأول وحدة العرب والثانى رفع مستواهم الاقتصادى ، بالاستفادة من جميع موارد العرب الطبيعية ، دون أن يكون استغلال طبقى ، أو ظلم اجتماعى .

وليست العبرة بالأسماء إنما المهم أن يكون التطبيق مفيداً ملائماً للعرب فلا يهمنى أن نسمى هذا الإصلاح ، بالعدل الاجتماعى ، أو المساواة الاجتماعية أو العدالة الأنسانية ، إنما المهم عندى أن نحقق للعرب وحدتهم ونرفع مستواهم الاقتصادى والفكرى والاجتماعى والسياسى .

الرد على الاشتراكية :

والاشتراكية مذهب من مذاهب الاقتصاد ، أو عقيدة من العقائد أو رأى فى السياسة ، أو الثلاثة معاً وإذا ظهرت فى أى بلد لا بد أن تقلب كثيراً من مفاهيمه ، وأن تؤثر فى النظام السياسى القائم على الحكم الفردى أو على غبن الأكثرية وتنعم الأقلية ، لا سيما إذا لم تكن البلد قد أخذت بنظام اجتماعى وسياسى ، يضمن الرفاهية لأكثرية أبناء الشعب ، فهى حرب دون ريب على الاقطاع ، والاستعمار ، والاستغلال بكل صورها وأشكالها .

---

(١) لاحظ مقدمة سعدون حمادي لكتاب فى سبيل البعث المطبوع سنة ١٩٦٣ طبعة سنة ١٩٥٥ ص ٢١٢ .

وهى فكرة جديدة هزت المثل ، فمن المفكرين من قبلها ومنهم من ارتضى جانباً منها ، ومنهم من ثار عليها وهاجم المعتنقين لها ، وقد حصلت على كتابين هاجما الاشتراكية وكنت أتمنى أن أحصل على أكثر من ذلك وفى الكتابين نجد رأى مهاجمى الاشتراكية الكتاب الأول « أكذوبة الاشتراكية » والثانى « التضليل الاشتراكى » (١) وعندى فى بغداد أكثر من كتاب ، لا تخرج فى ردها عن هذين الكتابين . والكتاب الأول تأليف الأستاذ محمد احمد باشميل ، وهو خطابى النزعة ، يزخر بالوعظ والارشاد ، محشو بالشتائم والسباب ، ومثل هذه الكتب تبعد الباحث المتجرد عن الاعتماد عليه ، وبذلك أضاع المؤلف الهدف الذى كتب من أجله الكتاب ، فإن المفكر هو الذى يتحدث بأسلوب منطق ويقرع الحجة بالحجة ، ويرد على النظريات رداً هادئاً رزيناً ، حتى يلاقى القبول فى النفوس لا يشتم ويتهم دون برهان أو بينة .

وفى طريف المتناقضات فى الكتاب أنه قال : إن الاشتراكية تقرب للصهيونية الأمريكية ، وأنها تقرب إلى خروشوف ، واستغرب كيف جمع بين الرأسمالية والشيوعية وهما أعداء تحت سقف واحد ؟ أو مع هذا فقد اعتبر خروشوف أبا الاشتراكية العربية وقال إن الاشتراكية العربية ليست إلا شيوعية (. . اسموا شيوعتهم المقتنعة بالاشتراكية العربية ، ليكسبوا عن طريق إضافة العروبة إلى اشتراكيتهم ، مشاعر الغوغاء السطحيين، الذين يسهل بمثل هذه الحيل والألاعيب تجنيدهم ، وإثارة عواطفهم العمياء وطمس بصائرهم.. ويرجع الاشتراكية العربية إلى ماركس روحاً ومعنى ، ونفى أن تكون للاشتراكية أصل فى الدين الإسلامى ، وهاجم التأميم بعنف وسماه السرقة والاغتصاب، وسخر فى هدف الاشتراكية إذابة الطبقات الغنية والقضاء على الغنى الفاحش والفقر المدقع ، ورأى ضرورة وجود هذ التفاوت الطبقى ، لأن هذا التفاوت فى الغنى، أوجد لحكمة من الله الذى سخر الفقير ليخدم الغنى

---

(١) تأليف الدكتور صلاح الدين المنجد .

وسخر الغنى لينتفع منه الفقير ، وقال عن الذين يرون إزالة الفوارق الطبقية إنهم (... ملحدون يحاولون سفها تغيير النواميس الكونية الأبدية الإلهية ..) ورأى ان التفاوت الطبقي ضرورة اجتماعية ، لأن الله يخص بالغنى من يشاء ، ويكتب الفقر على من يشاء ، والغنى والفقر من شرعة الله . إلى آخر هذه الآراء التي يريد بها الكاتب إبقاء الفقير يعيش في فقره والشعب عبداً يرسف في ذلة أبد الدهر ، لايطور حياته ولا يأخذ بالحضارة والتقدم الحديث لأن الله كما يقول ونستغفر الله مما يقول ، كتب الفقر على قسم من البشر، فيجب أن يكون الانسان فقيراً ويرضى بالفقر. ولما تحدث عن أبي ذر الغفاري قال إن أبا ذر لم تكن دعوته الاستيلاء على على الأموال بالقوة ، وإنما أراد من الأغنياء أنْ يوزعوا فضلات أموالهم على الفقراء والمساكين. وقال إن جميع المفسرين من الصحابة وغيرهم سوى أبي ذر أجمعوا على أن آية الزكاة آية ناسخة لآية الكنز ، وليس للحاكم المسلم أن يستولي على أي شيء من أموال الناس ، سوى الزكاة من مال المسلم أو الجزية من مال الذمي الواقع تحت حكم المسلمين ، وقال إن ثروات الصحابة بلغت الملايين أو يظهر أن الكاتب جمع قسماً من الأحاديث التي ألقاها من إذاعة مملكة عربية . .

وقد فاتني أن أمر على كتاب التضليل الاشتراكي وأرجو أن يتاح لي وقت آخر لتلخيصه وإبداء الرأي فيه واكتفي هذا الكتاب في هذه المحاضرة لأني أملك الكتاب معي في القاهرة .

---

(١) أكذوبة الاشتراكية العربية طبع سنة ١٩٦٢ ولم يذكر مكان الطبع وأرجح أنه من مطبعة بيروت ، لاحظ الصفحات . ٨٩ و٩ و١٠ و١١٠ و١٦ و٣٣ و٦٣ و٧٥ و١١١ على التوالي .

الأشتراكية فى العراق :

وبعد أن تخلى العراق عن الحكم الملكى فى ثورته فى ١٤ تموز بقى فى صلاته الاقتصادية يسير حسب النظام القديم ثم أخذ بالنظام الاشتراكى ومازال جاهداً لتطبيق هذا النظام وستمضى سنوات حتى يقدر المفكرون من نشر الرأى الاشتراكى بين الناس ، وتصبح الاشتراكية جزءاً من وجدناهم . وقد جند النظام الاشتراكى قسماً من العاملين فى القضايا العامة ، ووقف ضده آخرون . ويمكننا أن نطلع على جانب من هذه الاراء فى الاستفتاء الذى اجرته مجلة (الصناعى) التى رأت أن حوادث القرن التاسع عشر والقرن العشرين ناقضت آراء الاقتصادين القدامى التى تقرر الحرية الاقتصادية ، وابتعاد الدولة عن التدخل فى الاقتصاد وأن يتاح للفرد التمتع بحرية اقتصادية حسب طاقته وحسب مصلحته(١) فوجدت أحد الكتاب يقول : إن الاشتراكية تمثل الجانب الاقتصادى للحرية ،ولاحرية تامةبدون اشتراكية ، لأن الحرية السياسية تبقى بدون محتوى،إذا لم ترتبط بتكافؤ الفرص الاقتصادية ، وضمان مستوى لائق من المعيشة ، ومنع الاستغلال ، وعدالة توزيع الدخل القومى (٢) ..)

وقال كاتب آخر : إن الاصل فى السياسة الاشتراكية ، هو التدرج نحو الإشتراكية الحقيقية ، وهى الملكية الجماعية . واستطرد فقال :إن الأصل هو هذه الإنسانية التى لا اعتقد أنها يمكن تحقيقها إلا بالحرية ، فالإنسانية والحرية مترادفتان،وحين تنعدم الحرية ، تنعدم إنسانية الإنسانية ..) ومن قوله : (... فإذا استطاعت الإشتراكية أن تحافظ على حرية الإنسان ، فانها بذلك تكون قد حققت أسمى ما يصيغو إليه المجتمع (٣)

---

(١) يلاحظ العدد الاول من السنة الخامسة الصادر فى شهر آذار ١٩٦٤

(٢) رأى الاستاذ اديب الجادر ص ٣

(٣) رأى الدكتور عبد المنعم السيد على مجلة الصناعى ص ٤

وقال كاتب ثالث فى المجلة نفسها: يمكن التوفيق بين الحرية والاشتراكية ثم شرح رأيه بقوله . (الحرية هى الحرية الاقتصادية، والاشتراكية هى ملكية الدولة لوسائل الإنتاج الكبيرة ...)(١) .

وقال كاتب رابع (... الاشتراكية لا تعارض بينها وبين الحرية الدستورية الديمقراطية ، بينما يصعب التوفيق بين الحرية والماركسية ، لإصرار الأخيرة على ضرورة قيام دكتاتورية طبقة واحدة فى المجتمع . وهذا تفقد الطبقات الأخرى الحريات الدستورية والديمقراطية..)(٢) .

ويقف أمام الفكر الاشتراكى كاتب واحد بصراحة تامة وتناقش الرأى ولا يرضاه ويهاجم الفكرة من أساسها بقوله (... إن المناداة بالاشتراكية من أى نوع أو من أى اسم للاشتراكية، ما هو إلا دجل وتهريج ، وهذا ناتج عن عدم ثقة الناس بأنفسهم . وشعورهم بالنقص ، والأغرب من هذا وذاك ، جهلهم لمعنى الاشتراكية ، وعدم تمييزهم بين مذهب تدخل الدولة فى شئون الأفراد الاقتصادية، وبين الاشتراكية نفسها ، وفاتهم أنه لم تطبق الاشتراكية حتى الآن فى جميع أنحاء العالم بما فى ذلك المعسكر الشيوعى(٣) .. .)

ولم يكتف بإبداء رأيه هذا ، إنما أصر على أن يوضحه بقوله (إن الاشتراكية تخالف طبيعة البشر ، حيث إننا لم نجدها مطبقة فى أية دول العالم تطبيقاً اختيارياً من قبل الشعب ، بل وعلى العكس نجدها فى كل الدول التى تطبقها مفروضة على الشعب بالقوة والإكراه وإن نظام الحكم فى هذه

---

(١) رأى للاستاذ كاظم عبد الحميد العدد نفسه ص ٦ .

(٢) رأى الدكتور خالد الشادى فى المصدر السابق ص ٧ .

(٣) معارضة الدكتور هاشم الدباغ ص١٠ .

الدول قائم على السلطة المطلقة ، وهى تجعل الفرد عبداً ، وآلة مجردة من عنصرى التفكير والتعبير . . .(١) .

وقد رفض أحد الكتاب أن يستعمل كلمة الاشتراكية العربية لأنه لم يرها تدل مدلولا صريحاً على التطبيق فقال (. . . ليس هناك نظرية اشتراكية عربية فى الزراعة بمختلف طرقها ، ومفاهيمها . . . .) ثم أردف موضحاً هذا الرأى بقوله: (. . . إن الفكر الاشتراكى العربى الحديث ، لا يزال فى الأدوار الأولى من تكوينه ، ولم يتمخض حتى الآن عن نظرية خاصة به ، وإذا كان البعض يقولون بوجود نظرية اشتراكية عربية ، ذات ملامح متميزة، فنعتقد أن هذه النظرية مبنية على فرضيات عامة، قد لا تكون صالحة للتطبيق فى جميع الظروف والأحوال خاصة فى الزراعة ...)(٢) .

وقد صرح كاتب مسئول كان رئيساً للوزارة فى العراق عن رأيه فى الاشتراكية فسماها الاشتراكية الرشيدة وعرفها بقوله : هى الاشتراكية الهادفة إلى تحقيق العدل الاجتماعى ، والساعية إلى زيادة الإنتاج ، وحسن وعدالة التوزيع ، وهى فوق ذلك الاشتراكية البناءة التى لا تؤمن بالتقسيم الطبقى للمجتمع، ولا ترى حتمية الصراع الطبقى، والتى تؤمن بأن الاشتراكية فى واقع الحال ليست إلا الوجه الإجتماعى للقومية العربية ، وقال:(... إنها بعبارة أخرى اشتراكية نيرة تنتفع من مختلف النظريات والآراء والمذاهب، والأفكار ، لا تلتزم أو تجمد على واحد منها على التخصيص ...)(٣) .

---

(١) مجلة التجارة ، التى تصدرها غرفة تجارة بغداد ج ١ السنة ٢٧ عدد آذر ١٩٦٤

(٢) رأى الدكتور عبد الصاحب العلوان فى مجلة الاقتصادى العربى التى تصدر فى دمشق العدد ١٤٩ الصادر فى ٢٠ كانون الثانى ١٩٦٦ .

(٣) من حديث للأستاذ عبد الرحمن البزاز لمراسل وكالة أنباء الشرق الأوسط ، طبعته وزارة الثقافة والإرشاد ببغداد بدون تاريخ . وله فى كتابه (أبحاث فى القومية العربية) مفصل الرأى .

وكتب الكتاب فى الفكر الاشتراكى فصولا كثيرة فى الجرائد والمجلات مما لا يمكن حصره وممن كتب فى الموضوع الدكتور نورى الحافظ فقد كتب عدة مقالات نشرها فى مجلة المعرفة الدمشقية ثم جمع هذه المقالات ونشرها مرة واحدة ، وقد حاول الزميل الحافظ أن يستوعب آراء الاشتراكيين ويجول مع الاشتراكية لينشرها بين الشعب للمساهمة منه فى بث الوعى الاشتراكى الذى يحتاجه العراق ، وقد أطلعنا الكاتب على مختلف الاتجاهات والآراء الاشتراكية وقد كان موضوعياً فى آرائه وفيما جاء من آراء الآخرين .

وكتب الدكتور ياسين خليل (القومية والاشتراكية) تحدث عن الاشتراكية وتساءل :

ما الاشتراكية العربية ؟ وكيف تختلف عن المذاهب الاشتراكية العالمية ؟ وأجاب عن السؤال بقوله :

(. . إن الاشتراكية أنواع كثيرة ، والاشتراكية الشيوعية ما هى إلا لون من هذه الألوان ، وإن الاشتراكية الواحدة يمكن أن تختلف باختلاف تطبيقها، وباختلاف طبيعة الشعوب التى تأخذ بها، أما الاشتراكية العربية فهى ليست فكراً شيوعياً أو غربياً لأنها تعتمد على الإسلام وتستنير بمبادئه ، وبالمثل الإنسانية التى تؤلف جوهر عقيدتنا فى الحياة ، وهى ليست غربية لأنها تختلف عن الاشتراكية الغربية فكراً وتجربة ، فالاشتراكية العربية التى انتصرت فى أرض الجمهورية العربية المتحدة والجزائر تتفق مع الفكر الاشتراكى العالمى فى بعض الوجوه وتختلف فى أمور كثيرة ، لأن اشتراكيتنا تنبع من وجدان الأمة العربية وحاجاتها ومن طبيعة المجتمع العربى وتكوينه المادى والروحى الذى يتفق فى روحه وأهدافه مع ما يرجوه الإنسان العربى المسلم فى تحقيق مجتمع الكفاية والعدل)(١) .

---

(١) القومية والاشتراكية للدكتور ياسين خليل بغداد ١٩٦٤ ص ٧٦

والدكتور ياسين خليل وضع النقط وحدد الرأى بصورة واضحة وتحمل المسئولية والتخطيط فى العراق ، وهو مدرس فلسفة واضح الفكرة جلى الرأى فهو يقول : (الاشتراكية العربية ليست — كما يتصور الكثيرون — مجرد نظام اقتصادى وطريقة أو مذهب لرفع مستوى الأفراد الاقتصادى فقط بل إن فيها من الحيوية والمبادىء ما يجعلها تذهب إلى أبعد من ذلك بكثير ، إنها تحاول أن تخلق مجتمعاً جديداً تقدمياً يقوم على دعائم خلقية وروحية مستمدة من عقيدتنا الإسلامية ، وتسعى إلى خلق الصناعة المتطورة والزراعة القائمة على الاستفادة من الخبرات العالمية ، وهى بذلك تسعى إلى زيادة الدخل القومى والاكتفاء الذاتى ، والاشتراكية العربية لا تقبل مبدأ تسلط فئة من الشعب على الفئات الأخرى مهما كانت هذه الفئة كبيرة بل إنها تقدم الفرص المتكافئة أمام الجميع للعمل والإنتاج كل حسب اختصاصه وقدراته الجسمية والعقلية..)
ويتحدث عن الاختلاف بين الاشتراكية العربية وغيرها بقوله :

(... وتختلف من الوجهة الأيدلوجية عن غيرها لأنها ترتبط بالمعسكر الشيوعى أو الرأسمالى وتسعى إلى توطيد التعايش السلمى بين شعوب الأرض جميعاً ، وهى إذ تضع ذلك مبدأ تضع نصب أعينها تحديات الاستعمار من الخارج والرجعية العربية من الداخل ، وتختلف من أن فلسفتها وأسسها العقائدية مرتكزة على الإسلام ، بينما تعتبر الاشتراكية الشيوعية التفسير المادى لكون التاريخ قاعدة فلسفية لانطلاقها فى العمل ...)(١) :

فالزميل ياسين خليل يرى تطبيق اشتراكية مرتكزة على قواعد

---

(١) المصدر السابق ص ٧٨ و ٧٩

الإسلام لترفع من مستوى الحياة الاقتصادية للشعب وتخلق مجتمعاً تقدمياً متطوراً . . وفى دراسة الكتاب ستجدون أشياء أخرى شرحها الزميل ليست من مجال البحث اليوم، وأرجو مراجعة الكتاب ،وقد صدر كتاب الاشتراكية العربية للأستاذ عبد الرزاق شبيب المحامى ولم أطلع عليه وهو يكمل هذه الدراسة فى العراق(١) .

مؤتمر الأدباء والاشتراكية :

وفى مؤتمر الأدباء التى عقد فى بغداد بدعوة من جمعية المؤلفين والكتاب طرحت الاشتراكية باعتبارها جانباً من جوانب البناء فى الأدب فرأيت أن أشير إلى ثلاث مقالات هى :

١ ــ القرآن والمفاهيم المثالية للاشتراكية : ألقاها الشيخ أمين الخولى وهو يمثل الجانب الإسلامى فى الاشتراكية على ضوء فهم القرآن الكريم فهماً جديداً وتفسيره يكشف عن المفاهيم الاشتراكية التى تحوبه فقد قال : (. . . فإذا ما ساند العرب اشتراكيتهم اليوم بتطلعات أدبهم اللامحة ، فما أولاهم بأن يلتمسوا مساندة هذه الاشتراكية بالتوجيه القرآنى ، الذى هو ذروة الأدب ودعوة الأمل للغد . . .) وقال (. . . وأشعر بضرورة الإشارة الموجزة لمنهج فهم القرآن وتفسيره اليوم ذلك التفسير الذى يكشف عن المفاهيم الاشتراكية فيه ، على أساس من طبيعة العربية وحسها الذى لا يجرى عليه اختلاف ، ولا يحتكم فيه تعصب ، بل يطمئن إليه العربى بعروبته وحدها ، فلا ينكر فهمه ، فيطمئن إليه المتدين بعد ذلك على بصيرة نيرة،ينزل على حكمها الفن والعلم جميعاً. . . . وشرح المفاهيم المثالية فى القرآن الكريم التى تحد من التملك الفردى ولكنها تعترف

---

(١) أخبرنى به الأخ الدكتور عبد الحسن زلزلة وقال إنه طبع أكثر من مرة .

بالملكية الفردية بتهذيب غريزة التملك وتحويل الميول تحويلا نفسياً مدبراً باتقاء الشح وتهديد مكتنز المال وعدم إخراجه للمنافع الاجتماعية وتقديم الجزاء الحسن لمن ينفق فى سبيل الله ويخرج الكاتب بأن مفاهيم القرآن المثالية أوسع أفقاً من الاشتراكية التى يتحدث عنها الشعب العربى اليوم وهو لايرى أن تسمي مثالية القرآن بالاشتراكية لأنها مثالية جاوزت آمال الاشتراكية .

٢ — الجذورالتاريخية للاشتراكية العربية للدكتور عبدالعزيز الدورى

وقد بحث الدكتور الدورى فى الثورة العربية الهادفة إلى تحقيق الحرية والوحدة وبناء المجتمع العربىفى ظل العدالة والرخاءوأثر الفكر فىالتوعية والتمهيد للثورة ولعل البحث من البحوث النادرة القيمة التى أرجو أن تقرأ من قبلكم بامعان فقد وضع الباحث آراءه بأسلوب .مركز عميق لما بحث فى المفهوم التى تنطوى عليه الاشتراكية العربية ورأى ضرورة الاستناد على الإرث الحضارى والقيم العربية مع بعثها وتجديدها فقال :

(إن الاشتراكية العربية ليست صورة أخرى للماركسية . وإنما انبعثت من واقع الأمة العربية ومن إرثها الحضارى ، وإنها تمثل قيمها الأساسية ومفاهيمها الخلقية وهذا لا يعنى عزلتها بل إنها فى الوقت نفسه تستفيد من خبرات الأمم الأخرى ومن نتاج الفكر الانسانى لإغناء ذاتهـا) .

(إننا حين نؤكد على الجذور العربية الاسلامية للاشتراكية العربية ، ونؤكد على تمثلها للقيم العربية الاسلامية ، وللنظرة الاسلامية للحياة ، لا نقصد البحث عن مبررات الاشتراكية منقولة ، في التراث أو أحداث التاريخ العربي الاسلامي ، لأن هذا لا يعدو وضع

أقنعة شفافة على نظام منقول ، إننا نريدها اشتراكية عربية في جذورها الحضارية وفى قيمها ونظرتها ، مفتوحة على خبرات العصر .)

وتحدث الدكتور الدورى عن الأعمال التى قام بها التراث الحضارى فى سبيل بث العدالة الاجتماعية وطرق إصلاحه دون الإضرار بالشعب ، واتجاه المجتمع الإسلامى لفرض عينات ومرتبات من الطعام وتقليل الفروق بين الرواتب وضمان حد أدنى للمعاش .

ثم قال : (. . واعتبر الإسلام الموارد الطبيعية الرئيسية ملكا مشتركا للأمة . وهذا شمل الكلأ والماء وحطب الوقود ، ثم شمل الأراضى وطبق ذلك على الأراضى المفتوحة ، واعتبر المعادن فى جوف الأرض ملك الأمة فى الاساس تستغلها مباشرة إن أرادت أو سمح باستغلالها على أن يكون خمس واردها لبيت المال . .)

(وبجنب ذلك ترك الاسلام مجال للنشاط الفردى ، فالأرض الموات فى الأصل للأمة ، لها أن تحييها وتفيد منها ، ولها أن تسمح للأفراد بإحيائها . وكذا الأمر بالنسبة للمعادن فهى فى الأصل للأمة وقد تسمح الحكومة للأفراد أو الشركات باستغلالها مقابل دفع الخمس ، كما حصل بالنسبة للمناجم على حدود النوبة) .

كما تحدث عن الميراث ومنع تكدس الثروات والتطورات الاقتصادية التى طرأت على الفكر الإسلامى وكنت أتمنى أن يوسع الموضوع ففيه إشارات من الضرورى شرحها للقارىء العادى .

وختم المقال بقوله :

(إن العدالة الاجتماعية التي ننشد تتمثل في الاشتراكية العربية وهي

حصيلة مثلنا وقيمنا ومبادئنا الإنسانية ، فى تفاعلها الإيجابى مع واقعنا وفى سبيل المجتمع الجديد الذى نريد مستفيدة فى تطبيقاتها من تجارب البشرية وتطورها العلمى[1]) .

٣ — المفاهيم القومية الاشتراكية للدكتور ياسين خليل

وسبق أن عرضت لكم رأيه فى كتابه (القومية والاشتراكية) وليس فى هذا المقال جديد فقد جاءت آراؤه مطابقة لآرائه السابقة فقد نشر الكتاب بعد هذه المقالة .

---

(١) دور الأدب فى معركة التحرر والبناء مؤتمر الأدباء العرب الخامس بغداد ١٩٦٥ . لاحظ القسم الثانى منه .

الفصل الخامس

الشعر والاشتراكية

قدمنا فى المحاضرات الماضية فكرة سريعة عن الاشتراكية والاشتراكية الغربية ورأينا أثر الاشتراكية فى النثر وكيف وردت فى صيغ مختلفة ولم يكن بالمستطاع أن نحصى الكتب الاشتراكية فقد كتب فى مصر كثيرا عنها ، ألبس فيها الكتاب لباس الاشتراكية كل المفكرين وقادة الرأى السابقين وجعلوا اشتراكية لخديجة الكبرى ولعمر بن الخطاب وغيرهما وما كان أغناهم عن هذه العناوين ، وقد قرأت أحد هذه الكتب فما وجدت للفكر الاشتراكى أثراً فى الكتاب إلا صفة المضاف والمضاف إليه ، كما قرأت قسماً آخر منها فرأيت فيها الإكثار من اللف والدوران فى العبارات والحرص الشديد على أن يكون الكتاب ضخماً كبيراً ومثل هذه الأمور تبعد الشعب عن جوهر الموضوع فى عصر نحتاج فيه إلى الدراسات الجدية العميقة لأننا نحيا فى دور من أدق الادوار الذى نحتاج فيه إلى فهم عميق ودراسة مجدية ، ووضع حلول منطقية يمكن تطبيقها على المجتمع العربى الحاضر .

والاشتراكية بدأت كما رأينا تدخل إلى الفكر العربى فى القرن التاسع عشر وكانت محدودة الأثر فى كتابات بعض المفكرين والكتاب وقادة الإصلاح الاجتماعى وبدأت الدعوة إصلاحية تطالب بإصلاح شامل لايفرق بين المدينة والقرية والفلاح وابن المدينة ، فقد كانت حالة الشعب العربى كله حالة تدعو إلى الألم والمرارة ، من تأخر وانحطاط . وقد قسمت البلاد العربية إلى أقسام ، ووجدنا الإقطاع ينشب براثنه فى قلب الفلاح فى الريف ، وانتشر الفقر فى المدن ، على الرغم من أن كثيراً من الأقطار العربية وافرة المياه ثرة الخيرات ، ولم يكن للفلاح قانون يحميه ، أو نظام يرد عنه غائلة الإقطاعي ، فقد كان يطرد من أرضه ويلاحق حتي في المدينة ،

إذا ماهرب من سطوة الإقطاع. وعاش في بيوت قذرة صغيرة مع حيوانات الاقطاعي ومواشيه .

وقد حاولت بعض الحكومات أن تصلح حال الفلاح، وتسن القوانين لحمايته . ففي العراق شيدت بعض القرى لرفع مستواه الصحي والاقتصادي ، وشجعته على الملكية الصغيرة مثل مشروع الدجيلة،غير أن كبار الإقطاعيين استعملوا نفوذهم في وقف القوانين التي سنت لحمايته ، خوفاً من أن ينتشر الوعي بين الفلاحين ويحسوا بالظلم الذي ينزله الإقطاعي بسوحهم .

وفي المدن كان الفقر المدقع منتشرا بين أكثرية الشعب الجاهلة المريضة ولم يكن أمام الشعراء ، إلا رسم صور لهذا الفقر ، وتسجيل الحوادث والنكبات ، التي تمر بالفقير . ولم يكن هذا الشعر إلا احتجاجاً صارخاً على ما حاق بالشعب العربي من مصير شيء ، وثورة عارمة ضد السلطات التي ارتضت أن يكون أبناؤها فريسة للتأخر والانحطاط وأكثر الشعراء الذين أحسوا بمشكلات الفقير وقضاياه هم من الطبقة الفقيرة ، أو الطبقة المتوسطة لذلك فقد كان شعورهم صادقاً ، وإحساسهم عميقاً : وقد كانت الدعوة عامة لاصلاح حال الشعب والمطالبة بالطعام والكساء ، للعامل والفقير والفلاح .

وأكثر هذه المشاعر مدفوعة بعامل الرحمة والحنان ،والشعور بالأزمة التي يعانيها الفقير والفلاح . سجل فيها الشاعر ذاتية مطلقة ، ورغبة نفسية عاشها الشاعر في فترة من فترات حياته ، أو عاصرها وأحس بها في المحيط الذي يعيش فيه ، فشعر مثل هذا الشعر لم يسجل إلا الصورة المثيرة،لاستدرار العطف ، والمطالبة برعاية هولاء المساكين ، ولم يكن الشعراء في فترة الاحتجاج يطالبون بغير إثارة الرحمة ، ولم يفكروا بتغيير النظام الاجتماعي والسياسي ، لإحلال العدل الاجتماعي بين الطبقات المعوزة. وانتشار الفقر

والمرض والجهل زاد فى الإثارة والاحتجاج ، ولكن رد الفعل كان هادئاً، بادىء الأمر ثم تحول إلى ثورة هادرة وحملة عنيفة على الأغنياء الرافهين فى الحلى والحلل، الذين يعيش إلى جانبهم الفقير يتضور جوعاً ومسغبة، ونكاد لانجد شاعراً فى العصر الحديث إلا ونظم فى القضايا الاجتماعيه ، والإصلاح . وليس من السهولة التمثيل من جميع الشعر العربى الحديث . ولو قرأتم شعر معروف عبد الغنى الرصافى وأحمد شوقى ، وحافظ إبراهيم ، وعلى الشرقى وعبد الرحمن البناء ، وإيليا أبى ماضى ، وأحمد الصافى النجفى والجواهرى والحبوبى لوجدتم فيضاً زاخراً من الشعر الذى عنى بالمشكلات الاجتماعية .

أحمد شوقى

وسأقف معكم على نماذج من شعراء مصر وشعراء العراق ، وأترك لكم البحث عن مثل هذا الشعر فى البلاد العربية الأخرى . لتوفر النماذج من هذين القطرين بين يدى . وبالرغم من ظهور كلمة « اشتراكية » فى شعر عدد من هؤلاء الشعراء فقد كان أكثرهم يذكر هذه الكلمة دون أن يفهم أصلها وما تعنيه ، لكنه سمع بأنها حركة إصلاح اجتماعى ، ولم تكن الاشتراكية واضحة فى المفهوم الذى حددت له اليوم . وقد فهم شوقى أن الاشتراكية إصلاح يرغم الناس على قبوله ، ويطبق بالقوة والعنف ، خلاف تعاليم الرسول الذى داوى المجتمع الإنسانى بالهدوء وجعل الزكاة وسيلة من وسائل الاشتراكية فقال :

الله فوق الخلق فيها وحده	والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة	والأمر شورى والحقوق قضاء
الاشتراكيون أنت إمامهم	لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرة	وأخف من بعض الدواء الداء
والبر عندك ذمة وفريضة	لا منة ممنونة وجباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله	حتى التقى الكرماء والبخلاء

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى   فالكل فى حق الحياة سواء
فلو ان إنسانا تخير ملة   ما اختار إلا دينك الفقراء

وأحمد شوقى شاعر مترف ، عاش فى نعمى وكان إحساسه بالفقر والمرض إحساساً عميقاً لكنه إحساس الرحمة ، وشعور الشاعر الرقيق المرهف الذى يؤذيه الفقر ، ويتأثر عندما يسمع مايحل بالفقراء من الآلام ، فقد عاد من المنفى سنة ١٩٢٠ ، وكان الغلاء قد استشرى فى البلاد ، وعمت المجاعة مصر ، واحتكر الأغنياء والتجار القوت ، ومنعوه عن أبناء الشعب . حتى بكى الناس من الجوع ، وضجوا من ويلاته ، فما كان من شوقى إلا أن طالب شباب النيل أن يرفعوا أصواتهم بالدعوات إلى الله أن يخفف عنهم الغلاء ، ويبعد عنهم قساوة الجوع . فأرادهم أن يصبروا على البلاء ، ويرضوا به وكان حرياً به أن يطالبهم بالثورة على هؤلاء المستغلين المحتكرين ، الذين لا يملكون رحمة ، ولا يشعرون بواجب . إلا أن تطفح خزائنهم بالأموال ، وإن مات الناس جوعاً فى الشوارع ، وتضور الصبية والأطفال على الأرصفة ، فقد قال شوقى :

شباب النيل إن لكم لصوتاً   ملبي حين يرفع مستجابا
فهزوا العرش بالدعوات حتى   يخفف عن كنانته العذابا
أمن حرب البسوس إلى غلاء   يكاد يعيدها سبعاً صعابا
وهل فى القوم يوسف يتقيها   ويحسن حسبة ويرى صواباً
عبادك رب قد جاعوا بمصر   أنيلا سقت فيهم أم سراباً ؟
حنانك واهدِ للحسنى تجارا   بها ملكوا المرافق والرقابا
ورقق للفقير بها قلوباً   محجرة وأكباداً صلابا
أمن أكل اليتيم له عقاب   ومن أكل الفقير فلا عقابا ؟!
أصيب من التجار بكل ضار   أشد من الزمان عليه نابا
وتسمع رحمة فى كل ناد   ولست تحس للبر انتدابا

أكل فى كتاب الله إلا ... زكاة المال ليست فيه بابا
إذا ماالطاعمون شكوا وضجوا ... فدعهم واسمع الغرثى السغابا
فما يبكون فى شكل ولكن ... كما تصف المعددة المصابا

والقصيدة على هذا النسق ، مطالبة بالإحسان ، والرأفة بالفقر ، وتراه يقول الغرثى السغاب، ولم يقل الغرثى الغضاب ، لأن شوقى لم يفكر بالثورة أو الاحتجاج شأن غيره من المصلحين والمفكرين ولم تدر فى خلده الثورة والعنف . وفى مثل هذا الأسلوب تراه يسير فى قصيدته العمال ، فبعد أن وصف العمال وصفاً غنائياً لطيفاً وقف فيهم واعظاً يعظهم ، وخطيباً ينصحهم ويرشدهم . فكان من نتيجة هذه النصيحة أن طالبهم بالاستماتة فى العمل ، وحذرهم من الثورة عند المطالبة بالحقوق ، ولم نجد صاحب رأس مال سلم حقوق العمال بالسهولة التى وصفها شوقى ، لأن جشع هؤلاء لايوقفه سوء حالة العامل ، وترديها فقال شوقى :

أيها العمال أفنوا الـ ... ـعمر كدا واكتسابا
واعمروا الأرض فلولا ... سعيكم أمست يبابا

وإذا ما احتاج العامل إلى المطالبة بحقوقه ورفع حالته الإقتصادية فيجب أن يكون رفيقاً هيناً كأنما هو صاحب الحول والطول ، وكأنه صاحب السلطة الذى يترفق بالمحكوم قال :

أطلبوا الحق برفق ... واجعلوا الواجب دابا

ومن الطريف أن يتصور شوقى هؤلاء ، يشربون الخمرة ، ويلهون ويجمعون الأموال لذلك نراه يطالبهم بترك الخمرة ، ورجاهم جمع المال ، ونسى شوقى أن أجورهم فى زمنه تكاد لاتكفيهم للطعام والشراب والسكنى .

وفى قصيدة له نظمها بمناسبة موت الكاتب الروسى الكبير تولستوى

نظمها سنة ١٩٢٠ عرج الشاعر فيها على الفلاحين الذى تصورهم يبكون الكاتب الروسى الذى أنصفهم فقال :

ويندب فلاحون أنت منارهم ... وأنت سراج غيبوه منير
يعانون فى الأكواخ ظلماً وظلمة ... ولا يملكون البث وهو يسير
تطوف كعيسى بالحنان وبالرضا ... عليهم وتغشى دورهم وتزور

وقد تغير موقف شوقى عندما تحدث عن الفلاح الروسى ، وتحدث عن الظلم الذى يعانيه ، والظلام الذى يسيطر على داره ، والجور الذى كبله ، حتى لايستطيع الحديث ، ولما ابتعد عن جو مصر نراه يتحدث بحرية تامة يقارب فيها درجة الاحتجاج على الفساد الذى انتشر فى أرجاء المعمورة ، والذى لايصلحه الإحسان ، ثارت الحسرة وسورة الاحتجاج فى نفسه هذه المرة وأراد أن يثور ولكنه وقف عند حد الوصف المؤلم الذى يدعو إلى الثورة والسخط فقال :

وهل عالج الإحسان والرفق عالم ... دواعى الأذى والشر فيه كثير
وهل عالج الأحياء بؤساً وشقوة ... وفلّ فساد بينهم وشرور (١)

وأرجو مراجعة شعره فى الشوقيات ومسرحية كليوباطرة ففيها أبيات تدعو إلى الإصلاح من أثر قراءة الفكر الاشتراكى .

حافظ ابراهيم :

ولا يختلف حافظ إبراهيم ابن الشعب واللاصق بالفقر ، عن أحمد شوقى فى معالجته المشكلات الاجتماعية ، فهو يعالج الأمر بهدوء ، وإن كان هذا الهدوء ، يطفح بالحسرة ، ويفيض باللوعة والألم والمرارة والسخرية اللاذعة ، فلنقف عند هذا البيت :

جرى بها الخصب حتى أنبتت ذهباً ... فليت لى فى ثراها نصف فدان

---

(١) ديوان شوقى ج ١ ص ٢٠٦ و ١٠ و ج ٣ ص ٨٧ .

أنه إنسان يرى بلاده تجرى ذهباً وهو لا يملك فيها حتى أقل من القليل المحدود . لم يطلب غير نصف فدان ليحس أنه يملك فى ثرى هذا الوطن شيئاً ، ومع هذا الشعور العميق بالشجن فلم يثر على حياة استغلتها حفنة الغرباء ، وتركوا أبناء مصر جياعاً ، . ويؤكد هذا الرأى فى قصيدته التى نظمها فى حريق ميت غمر سنة ١٩٠٢ الذى ترك الفقراء بالعراء يهيمون على وجوههم جوعاً وذلة ، فقال :

أيها الرافلون فى حلل الوشـ ـى يجرون للذيول افتخارا
إن فوق العـــراء قوماً جياعا يتوارون ذلة وانكسارا

وقد كتم ثورته فى قلبه ، وأراد أن يبث السخط والثورة ، فى المقارنة التى عقدها بين هؤلاء المنكوبين الذين لا يقدرون على الحصول على المأوى والطعام ، وبين أولئك المترفين الذين رفلوا فى عرس الأمير حيدر رشدى، وأنفقت فيه الأموال هدراً ، وضاعت فيه مظاهر الوقار والأدب فقال :

قد شهدنا بالأمس فى مصر عرساً
ملأ العين ، والفؤاد انبهاراً
سال فيه النضار ، حتى حسبنا
أن ذاك النضار يجـرى نضارا
بات فيـه المنعمون بليـل
أخجل الصبح حسنه ، فتوارى
يكتسون السرور ، طورا وطورا
فى يد الكاس يخلعون الوقارا

ثم يقارن بين الغنى المترف ، الذى يبدد أمواله بالكئوس معربداً وبين الفقير المملق الجائع . ويعود إلى الهدوء ويجعل الأمور مقدرة ، والحياة حظاً من الحظوظ ، ويقتل فكرة العمل والطموح فى النفوس فقال :

جل من قسم الحظوظ فهذا يتغنى وذاك يبكى الديارا(١)

---

(١) ديوان حافظ ص ٢٥١

حافظ وعمر بن الخطاب :

وفى قصيدته المشهورة يقف عند حياة عمر بن الخطاب ويجعله مثلا يجب أن يهتدى به المسلمون ، لأنه إنسان حاسب نفسه ، وحاسب زوجه ، ولم يدع لأى إنسان أن يستغل أموال المسلمين ، والقصة كما تعلمون ، هى أن زوجة عمر بن الخطاب اشتهت الحلوى فقترت من حصتهم فى الطعام فأخذت تجمع قليلا من الدقيق يومياً لتشترى بها الحلوى ، ولما علم الخليفة بالأمر ثار لأنه أحس بأنهم يقدرون أن يعيشوا بطعام أقل مما فرض لهم ، فيأمر برد الفائض الذى جمعته زوجته من الطعام خلال خمسة أيام إلى بيت المـال . ويختم الشاعر القصة ببيت هو :

ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به   أولى ، فقومى لبيت المال رديها

ويحدثنا عن قصة مشهورة فى التاريخ لعمر بن الخطاب ومختصرها انه رأى إبل ابنه عبد الله سمينة وكان قد اشتراها من إبل الصدقة فرأى أنه استفاد من سمعته خليفة وأشبعها فربح فى التجارة فما كان منه إلا أن يرد الربح إلى بيت المـال :

فقلت ما كان عبد الله يشبعها   لو لم يكن ولدى أو كان يرويها
ردوا النياق لبيت المال إنه له   حق الزيادة فيها قبـل شاريها
وهـذه خطة لله واضعها   ردت حقوق فأغنت مستميحيها(١)

وبعد أن نظم هذه الحادثة يعود إلى الاشتراكية المعاصرة ويرجعها إلى المسلمين وقادتهم بقوله :

---

(١) خلاصة القصة أن ابنه عبد الله اشترى إبلا وتركها ترعى فى الحمى ، فلما سمنت ذهب بها إلى السوق ليبيعها ، ورأى عمر بن الخطاب الإبل السمان وسأل عنها فقيل له إنها لابنه فنادى ياعبد الله بن عمر . فأسرع إليه ولده ولما سأله عنها قال له : إبل اشتريتها وبعث بها إلى الحمى كما يفعل سائر المسلمين ، فقال وهو يؤنبه : وكانوا فى ذلك الحمى يقولون اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين ، ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين ، ياعبد الله يابن عمر بع الإبل واحفظ عليك رأس مالك وما زاد على ذلك فاجعله فى بيت مال المسلمين .

ما الاشتراكية المنشود جانبها ... بين الورى غير مبنى من مبانيها
فإن تكن نحن أهليها ومنبتها ... فإنهم عرفوها قبل أهليها(١)

وشعر حافظ فيه دعوة واضحة وصريحة للإصلاح بهدوء ، وهو يحذر من ثورة ترتكب يكون من جرائها ارتكاب الآثام ، وخوفاً من ذلك طالب المصلحين أن يصلحوا نفس الفقير . وكيف يكون اصلاح نفوس ترى نفوس الأغنياء وقد ركبها الجشع ، وسيطر عليها حب المال، وفقدت الرحمة والشعور بالمسئولية؟ فقال :

أيها المصلحون أصلحتم الأر ... ض وبتم عن النفوس نياما
أصلحوا أنفساً أضر بها الفقـ ... ـر ، وأحيا بموتها الآثاما

ومن السخريات اللاذعة فى الشعر المصرى :

يا بائع الفجل بالمليم واحدة ... كم للعيال؟! وكم للمجلس البلدى؟!

وحافظ كما قلت شاعر الشعب الذى تجرع الصاب والعلقم فى حياته وأحس بأنه صاحب رسالة اجتماعية فكثرت فى ديوانه النظرات الإصلاحية التى صدرت عن وعى ولا وعى مسجلا فيها حياة الفاقة والأحزان ، التى حاقت بالشعب ، فقد تمرس بالخطوب وهزت الآلام قلبه ، وكان من جراء هذا الشعور أن استجدى عطف الأغنياء ، واستعطفهم على البائسين والمساكين، ولم نر فى شعره ثورة الساخط ، وسخط المتألم ، رغم أن تجربته الشخصية ، اندمجت بالتجارب العامة فصاغها بأسلوب جميل ، وعاطفة صادقة . ولعل الطبيعة الهادئة السمحة ، والبيئة الرضية، النابعة من طبيعة الشعب المصرى ، الهادىء اللطيف ، أثرت فى كسر حدة الثورة فى شعر الشعراء ، فلنختم هذا العرض السريع بوصف حافظ لأحد أفراد هذا الشعب الذى وصف نفسه فيه :

---

(١) ديوان حافظ ص ٨١

ذقت طعم الأسى وكابدت عيشاً | دون شربى قذاه ، شرب الحمام
فتقلبت فى الشقاء زماناً | وتنقلت فى الخطوب الجسام
ومشى الهم ، ثاقباً فى فؤادى | ومشى الحزن ، ناخراً فى عظامى
فلهذا وقفت أستعطف النا | س على البائسين فى كل عام(١)

أحمد الكاشف :

وقد أكد الكاشف إن الاشتراكية حتمية وطا السيطرة الأخيرة على المجتمع :

للاشتراكية العقبى إذا شملت | شتى الشعوب وجاراها المجارونا
فلا الكثيرون ملكا للأقلينا | ولا الأقلون ملكا للكثيرينا
ولانرى واحدا ملأى خزائنه | بالمغنيات وآلافا يجوعونا
ولا نرى درة فى رأس محتكم | تهفو إليه قلوب المستظلينا(٢)

العراق :

وسأقف معكم وقفة أخرى عند الشعر العربى فى العراق ، وأرجو أن يتابع الإخوان الزملاء القادمون من شمال أفريقيا العربى خطواتى فى الدراسة ، لأن تاريخ الأدب العربى سجل أمين للحياة العربية ، فى محاسنها ومساوئها ، ومن دراسته نتعرف على التطور الفكرى للقطر ويجلو كثيراً من أمور تتعلق بالتقاليد والعادات .

ويختلف الأدب عن الفنون الجميلة الأخرى بدقة رسمه للحوادث وتطورها وتفاصيلها لأنه يلم بجوانب متسعة لايمكن للرسم أن يلم بها

(١) المصدر نفسه ص ٣٠٤ و ٢٧٥ و ٢٩٢ و ٦٣١
(٢) فى الأدب العربى الحديث للكاتب ص ٣٨ ولاحظ رأى الزهاوى فى الصفحة نفسها .

أو للنحت أن يحيط بجوانبها ، وشتان بين رسام يرسم الصور الفكرية والمعانى الاجتماعية وبين رسام يصف مظاهر الحياة وصورها بدقة وإحاطة وتفصيل .

والأدب فى العراق يختلف اختلافا واضحاً عن الأدب العربى فى مصر، فالأديب فى العراق يرسم الصورة بعنف وجموح وقوة تقود الإنسان إلى الإحساس العميق بضرورة تغيير نظام الحكم وتدعوه إلى الثورة والسخط والتبرم ، ولا يخلو من جماعة يرسمون الصور الاجتماعية الهادئة الهادفة إلى الإصلاح بهدوء وتؤدة .

وقد عالج الشعر فى العراق مشكلة الفلاح والاقطاع والفقر والمرض ولم تشغله التيارات السياسية عن البحث فى إبراز هذه المشكلات وتصويرها ليحس الشعب بها . فقد بدأ بالاحتجاج عندما رسم الصور الحزينة،ومشاهد البؤس المؤلمة للفلاح الذى لم ينل أى تطور اجتماعى ملموس يغير به حياته، وفقد الضمان الذى يحميه من سلطة الاقطاعى الذى كان أول الأمر رئيس القبيلة وشيخها ،والفلاح ابن العشيرة فاستحال الفلاح تابعاً وأصبح الشيخ اقطاعياً فبعدت الشقة بين الأبناء الذين كانوا متضامنين (١) .

عاش الفلاح فى جوع قاتل ، ومرض فتاك، وجهل مطبق ، حتى قدرت الباحثة الانكليزية دورين وارنر معدل دخل الفلاح السنوى مابين خمسة باونات إلى خمسين وعلى أحسن الظروف فلم يزد هذا الدخل على الدينارين شهريا . فما يصنع الفلاح بهذا المبلغ الضئيل ؟

---

(١) تراجع التفاصيل فى كتابنا (الشعر العراقي الحديث) الفصل الخامس والشعر العراقي الاجتماعي (بالإنكليزية) .

محمد صالح بحر العلوم

وقد انعكست حالة الفلاح بفقره وشقائه فى شعر الشعراء وبالأخص الشعراء الذين احتكوا به وعاشروه من قرب ومن شعراء الفلاح محمد صالح بحر العلوم الذى أهدى ديوانه(١) الأول إلى الفلاح .

وفى الديوان وصف لحالة الفلاح وبؤسه وشقائه ومرضه وتأخره ومن قصائد هذا الديوان (الحى المقبور) وصف معاناة الفلاح واستغلال أصحاب الثروات له دون أن ينصفوه ، فهو يأكل أردأ الأطعمة ، ويتحمل زمهرير الشتاء وحر الصيف صابرا ، لأن الأغنياء ليست لهم أحاسيس تشعر بما يعانيه هذا الإنسان وعندما نظم قصيدة فى ثورة ١٩٢٠ سماها ثورة الفلاح اعترافاً بفضله فى البذل والفداء والتضحية فى سبيل الوطن والدفاع عن حياضه ضد المستعمر الذى دخل بلادنا وقصيدة ثالثة له اسمها الفلاح استعرض خلالها حياة الفلاح البائسة وقارن هـذا البؤس الضارى مع الترف المبطر فقال :

أنت يافلاح عانيت البلاء   واجتنى غيرك أثمار التعب
تسهر الليل لجعل الأغنياء   بارتياح وهناء وطرب

ورأى أن القصور التى يسكنها الأغنياء هى ملك الفلاح الذى كد فى سبيل بنائها ورفعها شامخة الذرى فقد سرقت أتعابه وخيراته فى سبيل هذا البناء ، وطالب بالثورة على هؤلاء .

فقال :

حلقت آهات شكواك على   جاحدى فضلك ليلا فى السما

---

(١) العواطف وطبع سنة ١٩٣٧ وقد اعتمدنا عليه فى النصوص الشعرية .

فاستحالت شهبا ترعى الملا وترى من لا يراعى الذمما
فاترك الزرع ونح المنجلا عنك حيناً واملأ الأرض دما
وبحد السيف حاسب دولا بينها حقك أضحى مغنما

لاحظوا الشعر وقارنوه بين شعر شوقى الذى طلب أن يصرخ الشعب بالدعوات لفك أزمة الغلاء وبين (واملأ الأرض دما) و (بحد السيف حاسب دولا) ففي الشعر عنف وقوة بعد أن يئس الشاعر من رحمة الأغنياء والإقطاعيين ومن قوله فى استعمال القوة والعنف فى استحصال الحق :

يا ابنة الريف اجمعى لى حطبا وخذى من زفراتى ضرما
واحرقى كل ظلوم غاشم يجد اللذة فى أن يظلما
واتركى الرحمة فالناس هنا همج يحتقرون الرحما

شعراء آخرون :

وشعر الاحتجاج والثورة فى العراق كثير وأكاد أقول إن أكثر شعر العراقيين ثورة واحتجاج وعنف وقد وجدنا شعراء كثيرين نظموا فى مشكلات الفلاح والريف والإقطاع أذكر لكم أسماء الذين أوردتهم فى كتابى الشعر العراقى الحديث وهم حسين كمال الدين ومحمود الحبوبى ومحمد رضا المظفرى ومحمد جواد السودانى كما جاء بعد هؤلاء نفر ساروا على هذا النهج لا يمكن أن أحصيهم .

ودعونى أقف معكم مع ثلاثة شعراء نظموا فى مشكلات الفلاح هم أحمد الصافى النجفى ومحمد مهدى الجواهرى وعلى الشرقى .

أحمد الصافى النجفى :

ومن قصائد النجفي المشهورة التي افتتح بها ديوانه (الأمواج) قصيدته

فى الفلاح ففيها كثير من المعانى الرائعة وهى أجمل سجل للفلاح فى العراق . وقد رجاه فى الشعر أن يترفق بنفسه .

فقال :

رفقاً بنفسك أيها الفلاح تسعى وسعيك ليس فيه فلاح
لك فى الصباح على عنائك غدوة وعلى الطوى لك فى المساء رواح
هذى الجراح براحتيك عميقة ونظيرها لك فى الفؤاد جراح
فى الليل بيتك مثل دهرك مظلم ما فيه لا شمع ولا مصباح
فيخر سقفك ان همت عين السما ويطير كوخك ان تهب رياح

وبالرغم من عناء الفلاح وآلامه وشقائه فى الكوخ الحقير فقد أثقله الاقطاعى بالديون حتى يستولى على حريته ويملكه أجيرا طول حياته فكانت آلامه سطوراً رسمتها الحادثات على وجهه البائس تنعم بها الإقطاعى قال :

هذى ديونك لم يسدد بعضها عجزاً ، فكيف تسدد الأرباح ؟
بغضون وجهك للشقة أسطر وعلى جبينك للشقا ألواح
عرق الحياة يسيل منك لآلئا فيزان منها للغنى وشاح
أتصد جيش الطامعين ولم يكن لك فى الدفاع سوى الصياح سلاح ؟

ولما لم تجد صيحات الرجاء ولم تنفع حالة الفلاح المتردية فى إثارة العطف على الفلاح الذى أصبح لقمة مستساغة يأكلها الإقطاعى وجب أن يقوم الفلاح بعمل ولم يكن العمل ثورة وعنفاً إنما قلع الأغراس التى غرست فنعت عن الضعيف وحللت على الإقطاع القوى .

يا غارس الثمر المؤمل نفعه دعه ، فإن ثماره الأتراح
اقلعه فالثمر اللذيذ محرم للغارسين وللقوي مباح

الجواهرى :

وأترك لكم دراسة القصيدة كلها وتجدونها بين النصوص فى آخر الكتاب ونقف مع الجواهرى وقفة أخرى كان الجواهرى بادىء الأمر هادئاً عندما تعرض للمشكلات الاجتماعية بصورة عامة فقد وقف فى شعره موقف المتسائل عن قوة تستطيع دفع الظلم الذى ينزل بالشعب ويتمنى أن يجد مصلحين يحلون هذه المشكلات الحقيقية ووضع السبل لها للتخلص منها فقد رأى الفلاحين وهم يتضورون جوعاً تحت سياط الجشع ووجد شعباً يذله الإقطاع بسطوته وقساوته فيقول :

ألا قوة تستطيع دفع المظالم   وإنعاش مخلوق على الذل نائم
ألا أعين تلقى على الشعب هاويا   إلى حمأة الادقاع نظرة راحم
وهل ما يرجى المصلحون يرونه   مواجهة أم تلك أضغاث حالم
تعالت يد الاقطاع حتى تعطلت   عن البت فى أحكامها يد حاكم

ويرسم لنا صورة من أجمل الصور الشعرية للفلاح فى الكوخ المظلم الكئيب وقد بات جائعاً ونام المنعمون فى تخمة قال :

حنايا من الأكواخ تلقى ظلالها   على مثل جب باهت النور قاتم
تلوت سياط فوق ظهر مكرم   من اللؤم مأخوذاً بسوط الآلائم
وباتت بطون ساغبات على طوى   وأتخمت الأخرى بطيب المطاعم
أهذى رعايا أمة قد تهيأت   لتستقبل الدنيا بعزم المهاجم ؟!

وأراد أن يقنع السلطة بأن الأمة يجب أن تكون قوية بقوة أفرادها حتى يدافعوا عن حماها ويذودوا عن كيانها ولا يقدر الجائع المريض الهزيل على الصمود والقتال فقال :

أمن ساعد رخو هزيل وكاهل   عجوز نريد الملك ثبت الدعائم

وليست قرية واحدة موبوءة تستدعى الإصلاح فإن جميع أرجاء العراق قد عمته الأمراض شبابه وشيبه فالعرى والجوع والمرض والذل أوجاع عمت جميع القرى فقال :

ومروا بأنحاء العراق مضاعة ... وزوروا قرى موبوءة وبقاعا
تروا ما يثير الصابرين أقله ... عراة حفاة صاغرين جياعاً
وإن شبابا يرقب الموت جائعاً ... متى اسطاع عن حوض البلاد دفاعا

وأدرك الشاعر الجواهرى أثر الإقطاع العميق فى بلوى القرى العراقية وأصبح ساكنها . لا يملك من حطام الدنيا إلا أخشاب الكوخ وحصرانه فليس له من المتاع أو الطعام غير نبضات قلب الفلاح المرتاع من حساب الجباة الذين لا حقوه فى كل شىء ، وأرجو أن تقفوا عند البيت الأخير قليلا .

جل معى جولة تريك احتقار الشعب والجهل والشقاء جماعا
تجد الكوخ خالياً من حطام الدهر ... والبيت خاوياً يتداعى
واستمع لا تجد سوى نبضات القلب ... دقت خوف الحساب ارتياعا
فلقد أقبلت جباة تسوم الحى ... عنفاً ومهنة واتضاعا
إن هـــذا الفلاح لم يبق إلا العرض منه يجله أن يباعا

على الشرقى :

وقد اهتم على الشرقى اهتماماً بالغاً بمشكلات الفلاح فقد اعتبر حلها سبيلا إلى تقدم الشعب كله لأن الفلاح ركيزة الحضارة فى المدينة وبتقدم الفلاح فى الريف تبنى حضارة المدن وتتقدم الأمة فقال :

إن تفتش عن ارتياح بلاد ... فتفقد شئونها والنواحى
وإذا ارتاحت البلاد تبدت ... في قراها علائم الارتياح

والفلاح الذى يحيل الأرض البور إلى جنة من الجنان فتسمق الأشجار وتزهو الرياض وتموج سنابل القمح من كده يعيش تحت الأشجار عارياً، ولا يعود عليه من هذا الخير غير الحرمان والآلام والأوجاع .

ما لهذا الفلاح فى الأرض روح؟ أهو من معشر بلا أرواح ؟
هو فى جنة ينال عذاباً وهو تحت الأشجار أجرد ضاح
وقرى النمل لهف نفسى أثرى من قراه ، إلا من الأتراح

وقد أثار على الشرقى مشكلة من أهم المشكلات التى كان يعانى منها الفلاح هى مشكلة فرض الضرائب عليه ، فإن الاقطاعى يأخذ جزءاً كبيراً من الحاصلات ثم يدفع الضرائب الكثيرة فيضطر إلى الديون التى يأخذها من المرابين ، فقد اتفق على هذا المسكين الاقطاعى والمرابى والدولة ولم يترك له حتى الطعام الذى يجب أن يعيش منه طوال السنة .

يا ضعيفاً أرى الولاة عليه أعرضت من نصائح النصاح
لم يفده سلاحه فهو ليث قتلوه صبرا بغير سلاح
لو نفذنا لقلب ذاك المعنى لوجدناه مثخناً بالجراح

ويحدد الفوائد التافهة التى تعود على الفلاح ويتساءل بسخرية لاذعة بقوله :

خص من نهره ومن شاطئيه بخسيس المرعى وبالضحضاح
فى مروج من حولها قد تناغت كل صداحة إلى صداح
يا ربوعا حيوانها يتغنى بسرور وأهلها فى نواح

ولما فاض نهر الفرات أبصر الشاعر أثاث الفلاح الذى جرى عليها المياه

فرأى حصراً وأخشاباً وجرد ثياب فقال :

كانت حنايا الكوخ فوق خصاصه   الغرقى وعام البيت بالأخشاب
ولقد نظرت أثاثه الطافى فلم   أبصر سوى حصر وجرد ثياب

الرصافى :

وقد كانت مشكلة الفقر فى المدن هى التى دفعت الشعراء إلى الاحتجاج والثورة المكتومة عندما رسموا صور الشعب المبتلى بالأمراض المختلفة ولعل الرصافى هو خير من وجدنا فى شعره صوراً لهذا الاحتجاج عاش الرصافى فقيراً وعاش مع الفقراء والبائسين ولو درسنا ديوان الرصافى لوجدناه خير نموذج لهذا الاحتجاج الروحى والسخط النفسى على حالة الفقراء فمن الصور التى ذكرتها فى كتابى (الشعر العراقى الحديث) صورة فقير جائع ليس له من يساعده فى مرضه غير أخت يعيلها لكن المرض ألزمه الفراش وصرفت كل ماتملك حتى لم يبق عندها قطعة من الخبز ولما طلبه قدمت له الماء :

رام خبزا والجوع أذكى الأورا   فى حشاه فملته اصطبارا
ثم جاءت بالماء تبدى اعتذارا   وهل الماء وهو يطفى أورا
يطفىء الجوع ذاكيا فى التهاب

رسم الرصافى فى هذه القصيدة أروع صور الفقر وأخلد صور الفاقة فقد كان الرصافى برسمه صورة من الواقع يأخذها من حياته ومن البيئة التى يعيش فيها فجميع شعره الاجتماعى كان صوراً لحوادث حقيقية واقعية دلت على ما يعتلج فى قلب شاعرنا من الآلام التى عاناها المجتمع البغدادى فى عصره ولو قرأتم القصيدة لوجدتموها من أروع قصص البؤس والشقاء فقد صور الرصافي اخاها المريض الذي أخذ يدب المرض فى جسده بسرعة

وساعد عليه الجوع وتصوروا معى أخته التى لا تملك شيئاً لتعطيه، له . فإن اعتمدت على الإحسان والصدقة لوقت من الأوقات فلن تستمر هذه الصدقة ولو قيض لها الطعام فمن يأتى للمريض بالطبيب إن حياتنا الاجتماعية بحاجة إلى عدل اجتماعى يحس به الإنسان ويشعر بأن له كرامة تبعده عن ذل السؤال وإن له حقاً فى هذه الحياة فإن الحياة ليست حكراً للأغنياء الذين ماجاءتهم أموالهم بكدهم وتعبهم إلا النادر القليل وفى القصيدة النتيجة الحتمية للمريض الجائع ولكن ليس الموت هو النتيجة كما تتصورون إنما بعد الموت فمن أين لها بالكفن ؟ ومن أين لها بمن يدفن الميت ؟! إنها أمور تقع فى المجتمع الذى ليست فيه عدالة اجتماعية ولاضمان للمعوز والفقير ، ومثل هذه الصور هى التى تدفع الشعب إلى الثورة والسخط . بعد أن تبدأ صيحات احتجاج واستغاثة ألم. وقد مر الرصافى بدورين من أدوار حياته ففى الأول عالج المشكلات بالوعظ والإرشاد وترهيب الناس من سوء المصير الذى ينتظرهم فى الآخرة . دون أن تكون له فكرة واضحة عن الإصلاح الذى يريده فقال :

أيها الأغنياء كم قد ظلمتم نعم الله حيث ما قد رحمتم
سهر البائسون جوعاً ونمتم بهناء من بعدما قد طعمتم
من طعام منوع وشراب

كم بذلتم أموالكم فى الملاهى وركبتم فيه متون السفاه
وبخلتم فيه بحق الإله أيها الموسرون بعض انتباه
أفتدرون أنكم فى تباب

والطور الثانى الذى ظهرت فيه فكرة المقارنة ووضع حل لمشكلات الفقر ولاتظهر عليه وضوح الفكرة الاشتراكية إنما قرأها وفهم شيئاً من معانيها وإنها لاتقر الثراء الفاحش ولا ترضى بالفقر المدقع فنراه فى قصيدته

له عن أسرة آل عثمان يقارن بين أبناء الشعب الكادحين وبين أسرة آل عثمان التى تقضى وقتها فى جهل مطبق ولهو دائم فقال عنهم :

هم يعدون بالمئات ذكورا وإناثا لهم قصور مشاله
ولهم أعبد وإماء ونعيم ورفعة وجلاله
تركوا السعى والتكسب فى الدنـ ـيا . وعاشوا على الرعية عالة
يتجلى النعيم فيهم فتبكى أعين السعى فى نعيم البطاله
يأكلون اللباب من كد قوم أعوزتهم سخينة من نخاله

ويتهكم عليهم بقوله :

مابهم ما يميزهم عن بنى السـ ـوقة إلا رسوخهم فى الجهاله
هم من الناس حيث لو غربل النـ ـاس لكانوا نفاية وحثاله

وبعد أن يذكر مفاسد الحكم السلطانى ويعجب من صبر الشعب على هذه الفئة الجاهلة يقول أن مثل هذا الاستغلال لانجده فى النظام الإشتراكى ولا تقره الشريعة الإسلامية البيضاء .

تلك والله حالة يقشعر الحـ ـق منها وتشمئز العداله
هى منهم دناءة وشنار وهى منا حماقة وضلاله
ليس هذا فى مذهب الاشترا كية إلا من الأمور المحاله
وهى فى الملة الحنيفية البيـ ـضاء كفر بربنا ذى الجلاله

وفى قصيدة أخرى نجد الآراء الاشتراكية واضحة تمام الوضوح فقد

---

(١) للشاعر هلال ناجى كتاب (القومية والاشتراكية فى شعر الرصافى) طبع فى بيروت سنة ١٩٥٩ .

ذكر فضلها فى بناء كيان الشعب ويدها ، فى أن يعيش الشعب عيشة رضية، وتظهر فى القصيدة ذكره لطبقتين طبقة الرافهين الذين سماهم المكثرين وطبقة المعسرين الذين يكدحون ويكدون فى سبيل أصحاب القصور ثم يخرج شاعرنا بنتيجة إيجابية هى ضرورة تطبيق الاشتراكية القضاء على التفاوت . . وقد طالب بالإصلاح وقد وجدنا فى إصلاحه أثراً واضحاً من الدين فى فكره وقد وجدنا أثر النداء الماركسى المشهور (يا عمال العالم اتحدوا) فى قوله :

أيها العاملون إن اتحادا بينكم مرخص لكم كل غال
ما لعيش تشقون فيه سقاما بسوى الاتحاد من إبلال
فليكن بعضكم لبعض نصيراً ومعيناً له على كل حال

وتحدث عن حالة الأغنياء وترفهم ، وكد الفقراء وشقائهم، فى سبيل إسعاد الأغنياء ونعيمهم ، أصبح الفقراء عبيداً يملأون قصورهم ومن آلامهم يسقونهم ترفاً ومن شقائهم هناء فقال :

عندنا اليوم فى الحياة نظام قد حوى كل باطل ومحال
حيث يسعى الفقير سعى أجير لغنى مستأثر بالغلال
فترى المكثرين فى طيب عيش أرغدته لهم يد الإقلال
وترى الغائصين فى البحر امسى لسواهم ما أخرجوا من لآلى
وترى المعسرين فى كل أرض كعبيد والموسرين موالى
أكثر الناس يكدحون لقوم فغدوا فى قصورهم والعلالى
واحد فى النعيم يلهو وألف فى شقاء وأبؤس واعتلال

ويأتى على ذكر الاشتراكية التى تمنع هذا الاستغلال كما منع الدين

الإسلامى من قبل هذا الأمر وضرب مثلا بما صنع أبو ذر الغفارى فقال :

إنما الحق مذهب الاشترا   كية فيما يختص بالأموال
مذهب قد نما إليــه أبو ذر   قديماً فى غابر الأجيال
ليس فضل الزكاة فى الشرع إلا   خطوة نحو مبتغاه العالى
مبدأ ذو مقاصد ضامنات   ما لأهل الحياة من آمال
موصلات إلى السعادة فى العيـ   ـش هواد إلى طريق التعالى
ليس للمرء أن يعيش بلا كد   وإن كان من عظام الرجال(١)

ورأى أن رأس المال يجب أن يكون أداة لخدمة الشعب ولا أريد أن آتى على شرح القصيدة كلها فأرجو مراجعتها وستجدون فى شعره كثيراً من شغف الاحتجاج فى طوره الأول ثم دخله المفهوم الاشتراكى واستغلال الرأسمالى للعمال، وأترك لكم مرة أخرى البحث فى شعر الشعراء فى العراق ومن هؤلاء محمد بهجة الأثرى ومحمود الحبوبى وإبراهيم الباجه جى وجواد الشبيبى وكاظم الدجيلى ومحمد رضا الشبيبى والزهاوى ثم جاء جيل بعد الحرب العالمية الثانية فوجدنا فيه أثر الاشتراكية بجميع مفاهيمها وكلماتها وشعاراتها وبعد أن اتخذتها الدولة أداة للإصلاح الاجتماعى والاقتصادى تغيرت فى العراق كثير من المفاهيم فقدسنت قوانين الإصلاح الزراعى وأعطت للعمال حقوقاً ما كانوا يظنون أنهم سيصلون إليها ومازال الدولة تدرس الأمور الزراعية وأمور العمال غير أن التركة ثقيلة لا يمكن أن تصفى بسهولة كما أن إدارات الدولة بحاجة إلى فهم فى تطبيق الاشتراكية فإن كثيراً ممن يقومون على تطبيق الجهاز الاشتراكى يحتاجون

---

(١) ديوان الرصافى الطبعة السادسة سنة ١٩٥٩ ص ١٧٨

إلى وعى اشتراكى وقبول الاشتراكية قبولا وجدانياً حتى يصبح العمل الاشتراكى جزءاً من عمله ومن وجدانه ويمكن تطبيق الاشتراكية تطبيقاً سليماً .

وفى ختام البحث عن الاشتراكية أقدم لكم قسماً من المصادر التى وجدتها عسى أن تستفيدوا منها فقد أخرجتها من قوائم دور النشر . ومنها تجدون ضرورة دراسة الاشتراكية دراسة جديدة بضوء التيارات الأدبية وعساكم فاعلون .

قائمة الكتب الاشتراكية

دار القلم ١٩٦٧ :

دليل المرأة الذكية إلى الإشتراكية والرأسمالية. برناردشو ترجمة . د. عمر مكاوى

الإشتراكية والفكر الإشتراكى جلال يحيى

الدار القومية ١٩٦٥ :

الاشتراكية والتطبيق الاشتراكى فى الجمهورية العربية المتحدة حمدى حافظ

أسس الاشتراكية العربية تأليف عصمة سيف الدولة

الاشتراكية وسلوك العمال . لمعى المطيعى

معالم الطريق فى إعداد الإنسان الاشتراكى

التطبيق الاشتراكى ومشكلاته محمود زكى راشد

الاشتراكية العربية والوحدة محمد نغش

مستقبل الاشتراكية سى اى آر كروسلاند ت خيرى حماد

ماهى الاشتراكية البريطانية هارولد ويلسون لجنة كتب سياسية

الشرطة فى مجتمعنا الإشتراكى بهاء الدين ابراهيم محمود

قائمة دار المعارف (الكتب المتخصصة) ١٩٦٧ :

التخلف والاشتراكية فى العالم العربى د. جلال يحيى

النظم الاشتراكية ، مع دراسة مقارنة للاشتراكية العربية د محمد على أبوريان

الاعلام والتحول الاشتراكى د. مختار التهامى

فى الحرية والاشتراكية والوحده د. مصطفى أبو زيد فهمى

الاشتراكية العربيـــة الدكاترة صلاح الدين نامق و مصطفى عبد اللاه وعبد الحميد مصطفى

في ظل النظام الاشتراكي الديمقراطي التعاوني مجلدان
أسس علم الاقتصاد الاشتراكي د. محمد عبد الودود خليل
فلسفة الاشتراكية التعاونية وفلسفة التعاون د. محمد عبد الودود خليل

قائمة الدار القومية يوليو ١٩٦٥ :

قادة الفكر الإشتراكي . جلال حسن صادق
مبادىء الإسلام والإشتراكية . السعيد الشرباصي
حقيقة الإشتراكية . أمين شاكر وسعيد العريان وعلى أدهم
الإشتراكية . يحي عويس
إشتراكية القرن العشرين إعداد الإتحاد الاشتراكي البريطاني جزآن
الاشتراكية في تطور . جورج هربرت كول
التخطيط الاشتراكي والمساواة الاجتماعية . س. ر. كروسلاند
الرواد الأول للاشتراكية . كدول ترجمة عبد الله الشفقي
الاشتراكية التعاونية هاري وليدلر
سياسة الاشتراكية الديمقراطية إيفان ويرين
الاشتراكية قومية أم دولية فرانز بورتينو
الحركات الاشتراكية الاقتصادية المقارنة وليم لوكس هارفي ترجمة محمد هنائي
الاشتراكية الحية جون مورشتي ترجمة دانيال رزق
الاشتراكية في عهد الذرة جون إيتون ترجمة جرانت اسكندر
الاشتراكية والمجتمع الجديد دوجلاس جاي ترجمة اسكندر
الاشتراكية وممارسة السلطة بول راماديه ترجمة الدكتور جلال صادق
الاشتراكية الفابية مارجريت كول ترجمة محمد عبد الرزاق مهدى
قضية الاشتراكية دوجلاس جاي ترجمة جميل الذهبي
الاشتراكية في الهند سام ييرناند ترجمة طه عمر
الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية جوزيف شمبيتر ترجمة عبدالمنعم درويش
سياسة إشتراكية من أجل الشباب جول مالفيل ترجمة فاطمة عبد الله

الاشتراكية جورج بورجان وبيير شبير ترجمة الدكتور جلال صادق

الاشتراكية والطبقات المتوسطة أندرو جرانت ترجمة فريد مصطفى

مقالات فى الاشتراكية النقابية جورج برنارد شو ترجمة محمد عبدالله الشفقى

الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية جوزيف شوبيتر ترجمة خيرى حماد

تاريخ الاشتراكية البريطانية ترجمة نبيل يوسف علام

نحو مجتمع اشتراكى ديمقراطى تعاونى عبدالمنعم شميس والدكتور عبدالعظيم محمود

نحو الاشتراكية جون ستراتش

الاشتراكية التعاونية برنار لافيرنى ترجمة لجنة كتب سياسية

اشتراكيتنا والشيوعيون العملاء لجنة كتب سياسية

اشتراكيتنا العربية عبد المنعم شميس

الاشتراكية الزراعية فى كندا س. م. لبست

الثورة الاشتراكية إيفان كريبو

التعاونية فى مجتمعنا الاشتراكى سعد عفره

مع المجتمع الديمقراطى الاشتراكى التعاونى عابد عبد الرزاق

فلسفة الاشتراكية للدكتور محمد البهى

الاشتراكية وسياسة التوجيه الاقتصادى عبد السلام أبو السعود

الاشتراكية الديمقراطية التعاونية بطرس غالى ومؤلفان

حول النظرية الاشتراكية الدكتور عبد القادر حاتم

تحقيق الاشتراكية فى اقتصاد الاقليم الشمالى الدكتور صادق الأيوبى

اشتراكيتنا فى مجال التطبيق رأفة الخياط

الاشتراكية الديمقراطية التعاونية ابراهيم محمد البرابرى

الاسلام دين الاشتراكية الدكتور رفعت المحجوب وآخرون

قالوا عن الاشتراكية مقالات صحفية

الاشتراكية الديمقراطية التعاونية محمد كامل العبد

البناء الاشتراكى صبرى أبو المجد

في ظلال المجتمع الاشتراكى الدكتور أبو اليزيد على المتيت
الاشتراكية العربية ومكانتها فى النظم الاقتصادية الدكتور جمال سعيد
القيادة فى المجتمع الاشتراكى عبد الله بلال
الاشتراكية فى أقوال الرئيس جمال عبد الناصر
الاشتراكية والإسلام العقيد محمدى السعيد
على طريق الاشتراكية للرئيس جمال عبد الناصر
على طريق الاشتراكية من مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر
مشاكل التطبيق الاشتراكى وتجربة الخطة الخمسية الأولى على صبرى
معالم الطريق فى إعداد الانسان الاشتراكى مصطفى المستكاوى
المنهج العلمى والاشتراكية أحمد محمد خليفه
فى الاشتراكية العربية صلاح مخيمر وميخائيل رزق
الاشتراكية والتطبيق الاشتراكى فى الجمهورية العربية المتحدة حمدى حافظ
ملامح المجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى الرئيس جمال عبد الناصر
الاشتراكية الديمقراطية التعاونية لمعى المطيعى
الاشتراكية والعلم محمد عاطف البرقوقى
اقتصادنا الاشتراكى عطيات محمود جاد
الاشتراكية والميثاق محمود محمود
حرية اشتراكية وحدة الدكتور حسين فوزى النجار
العمال فى مجتمعنا الاشتراكى عبد الفتاح شلبى
اشتراكيتنا فى الأجور عبد الرحمن بكر
مسؤولية الفلاحين والعمال فى المجتمع الاشتراكى عبد المنعم شراكى صالح
رسالة اشتراكية فوزى عبد الحميد
الأجور فى المجتمع الاشتراكى أمين عز الدين
صناعتنا فى ظل الاشتراكية الدكتوره دولة صادق

الفصل السادس

القومية والشعر الحديث

وأعني بالتيار القومي : التيار الذي يمثل الوعي العربي بأشكاله المختلفة ومظاهره المتنوعة ، والذي عبر عن شعور الأمة العربية بكيانها وإحساس الشعب العربي بذاته وبحقه في حياة كريمة . وقد سمى هذا الإحساس بالوطني مرة والإحساس العربي تارة أخرى . ولهذا الشعور جذور عميقة في تاريخ الأمة العربية وفي النفس العربية مما يشهد بأن العربي لم يتخل يوماً عن الاعتزاز بقوميته وبحاجته الملحة إلى كيان عربي موحد، لأن الشعور نفسه نابع من حس ذاتي داخلي، وقد تأكد هذا الحس وبدا واضحاً عندما تعرض العرب للتحديات الخارجية التي أرادت الانتقاص منه .

وكانت بداية هذا الشعور مبهمة ، إذ لم تكن هناك مقومات حديثة تسنده وتوجهه ، بل كانت أهم ركائزه المبادئ الإسلامية وما فيها من دعوة إلى وحدة عربية أساسها أن العرب حملة الدين الإسلامي، وقد شعت معهم العدالة والمساواة والشورى أينما حلوا وأينما وصلوا ، فليس غريباً عليهم أن يتحدوا اليوم .

ولما سيطرت الدولة العثمانية على البلاد العربية ظل العرب ينظرون إليها نظرتهم السابقة إلى حكام المسلمين ولم يكونوا يفرقون بين العروبة والإسلام لأنهما كانا شيئاً واحداً متلازماً لا يمكن الفصل بينهما . وقد استند دعاة الإصلاح في أول أمرهم إلى الدين الإسلامي وحثوا على الاقتداء بالسلف الصالح واتباع سيرتهم . لأن التخلف العربي كان نتيجة لابتعاد العرب عن الدين الإسلامي وأصوله السليمة .

وقد بقي هذا الوعي العربي متصلا بالإسلام فترة من الزمن لأن العرب هم أهل الدين الإسلامي ولأن محمداً (ص) رسول الله إلى الناس أجمعين ،

عربى الأرومة ولأن القرآن الكريم دستور المسلمين عربى اللغة وتلك مقومات وأسس ترضى الشعور الإسلامى والعربى للأمة العربية . ثم ظهر وعى اتصل باللغة العربية ذاتها ورأى ضرورة نشرها وبعثها والتحدث بها واتخاذها أداة للمراسلات ، وكان من جراء هذا الوعى الدعوة إلى إحياء التراث العربى والثقافة العربية والحضارة العربية فى الكتب القديمة وإعادة نشر كتب التاريخ والأدب فى حين لم تكن الدوافع التى تدعو العرب إلى المطالبة بالحكم العربى والانفصال عن جسم الإمبراطورية العثمانية عميقة وقوية أو آنذاك لأن العرب كانوا يخافون أشد الخوف من سيطرة أوربا (الكافرة) عليهم وهم لا يستبدلون بدولة مسلمة دولة غير مسلمة إكراماً للإسلام دينهم الذى يربطهم بالعثمانيين .

وبعد الثورة الفرنسية ووصول الحملة الفرنسية إلى مصر بدأ هذا الوعى يأخذ أسلوباً آخر فى اتجاهه إذ تبلورت فكرة الحكم العربى فى نفوس قسم من العرب عندما أحسوا بالأذى من دولتهم المسلمة وبتأخرها وضعفها عن حماية العرب والإسلام عند ما تحداها نابليون وزحف إلى الشرق . . وبقى قسم منهم يتمسك بها ويدافع عنها بعد زوال الحكم الفرنسى، ثم بدأت تتضح هذه المفاهيم وتتعمق فى النفوس الرغبة فى الوصول إلى ما يكفل الاعتزاز بالقومية والفكر العربى القديم . وحاول الفكر العربى الحديث أن يواكب التيارات السياسية والفكرية الجديدة التى بدأت تصل إلى عالمه ولم تتضح مفاهيمه السياسية إلا عند ما قويت التحديات الخارجية وأخذت تظهر آثارها فى جميع مناحى الحياة العامة .

والتحول من الجامعة الإسلامية إلى الجامعة العربية تحولا طبيعياً ، فبعد أن ضعفت الدولة العثمانية ، لا بد من وجود كيان لحماية الأمة العربية التى هددها الاستعمار وتحداها فى أقطارها ، وبعد سقوط الدولة العثمانية قابل العرب الاستعمار الغربى وجها لوجه، وقسم البلاد العربية، فتنادى العرب بالدعوة

إلى الوحدة العربية لحماية أنفسهم أمام هذه القوة العارضة التى هددتهم فى عقر دارهم .

والملاحظ ان التحديات الخارجية هى التى تبعث فى الأمم وسائل الدفاع والحماية ، وتوحدها وتكتلها للبقاء على كيانها ومقوماتها ، فقد كانت الدعوة الإسلامية واضحة وقوية عند ما تحدت الحروب الصليبية البلاد العربية . فلم يكن مناص من دعوة تحمى بها نفسها ، وقد كانت الدعوة الإسلامية هى التى ضمت البلاد العربية وقضت على الاستعمار الغربى المتمثل فى الحروب الصليبية .

وهنا بدأ الوعى العربى يراجع نفسه وفكر العرب من جديد فى العلاقة بين الدولة العثمانية المسلمة وبين الأمة العربية . وثارت حيرة فى النفوس بين هذين الأمرين وتساءل المفكرون عما تعنيه الأمة ، أتعنى الأمة الإسلامية أم تعنى الأمة العربية ، وهل الأمة بمعنى القوم ؟ .

أديب اسحق :

فقال أديب إسحق (والأمة والجيل فى كل حى من الرجل قومه وفى عرف أهل السياسة الجماعة المتجنسة جنساً واحداً) فميز أديب إسحق بين أمتين الأمة العربيه وهى القوم والأمة الإسلامية وهى عدة أقوام يجمعها دين واحد وقال (إنما المراد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتزاز إلى جنس واحد يتوالدون فيه ويتسمون به) ولم يطلب لغة واحدة لهذه الأمة لأنه عاش فى فترة الدولة العثمانية (١) .

الكواكبي :

أما الكواكبي فقد كان واضحاً أشد الوضوح فى دعوته ، قالها صريحة

---

(١) الفكر العربي الحديث لرئيف الخورى بيروت ١٩٤٣ ص ٢١٦ .

انه يريد خلافة عربية . فهل كان الكواكبي معبراً عن شعور الأمة العربية أم أنه تعرض فى سورية لضغط أشد من ضغط أديب اسحق ، فان الحكم المباشر فى سورية وشعور العرب فيهـــا كان عند جماعة أكثر من جماعة أخرى والاعتماد على آراء الكواكبي وحدها غير كاف، ولكنها تعطينا فكرة واضحة عن شعور جماعة من الأمة العربية كانت ترغب رغبه صادقة فى الخلافة العربية بعد أن هزتها المشاعر القومية ، وقد ساعد الكواكبي على فهم فكرة الخلافة العربية واعتناقها إطلاعه على الآراء الأوربية الجديدة ودراسته فى السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية وعمله الصحافى .. وكلما كان الإنسان واسع الثقافة وذا تماس أكثر بالثقافات المختلفة كان أقرب إلى الصواب فى الرأى والعمق فى الفكرة، ولأن عمله يطلعه على أحداث العالم وأنظمة الحكم فيه وما يدور فى تلك الأنظمة فقد قارن الكواكبي بين نظام الحكم العثمانى المفروض على وطنه وبين الحكم الشعبي الوطنى فى الأمم الأخرى فوجد الحكم العثمانى غير صالح لأمته فضاق به ذرعاً .. لأنه أراد أن يكون لأمته من التقدم السياسى والاقتصادى والاجتماعى ما لأوربا . ولما لم يكن الكواكبي بقادر على تغيير حالة أمته فقد شن حرباً على الدولة العثمانية وعدد مساويها وذكر مآثر العرب ومزاياهم وسجاياهم عندما كانوا سادة العالم ودعا إلى أن يسود العرب أنفسهم وإلى تكوين خلافة عربية تستند إليها الأمة الإسلامية كما كان العرب أيام عزهم وحكمهم فقال (العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً فى الدين ، وقوة للمسلمين ، حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء فلا يأنفون من اتباعهم أخيراً) (١) .

وقد أحس الكواكبي أن فى عنقه رسالة يجب أن يؤديها ومتى ما أحس الإنسان بأنه رائد فكرة وصاحب رسالة فلن يتأخر عن تبليغ هذه الرسالة

---

(١) أم القرى ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ولاحظ ما كتبه عن عرب الجزيرة وصفاتهم ٢١٩ .

كان يرى أبناء أمته فى تأخر وانحطاط ويرى أمم الغرب تتقدم فى الحياة لذلك صمم على بعث الهمة فى النفوس وتجديد الطرق التى تسير عليها الأمة العربية . . ويبدو ان كتاب العرب فى هذه الفترة بصورة عامة لم تكن عندهم فكرة واضحة عن شمول الفكرة القوميه واتساع آفاقها كما نفهمها اليوم عندما تطورت الفكرة واتسعت وأخذ العرب يطالبون بوحدة من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى، بينما كان الكتاب الأوائل مثل جورج أنطونيوس فى كتابه (يقظة العرب) يريدها محصورة بالهلال الخصيب وهى الأقطار العربية التى كانت تتبع الامبراطورية العثمانية ولم يتطرق إلى شمال أفريقيا العربية (١) ومثل هذا الأمر واضح فى كتاب (يقظة الأمة العربية فى آسيا العثمانية الذى ألفه نجيب عازورى ففيه مخطط لدولة عربية كبرى مستقلة تمتد من العراق إلى السويس وتمنح إدارة خاصة إلى لبنان (المنطقة المسيحية) والأماكن المقدسة فى فلسطين وأن يكون على رأس هذه الدولة ملك عربى مع تأسيس خلافة عربية على رأسها أمير الحجاز (٢) أى أن هدف عصبة الوطن العربى تحرير الشام والعراق من سيطرة الترك وتكوين دولة عربية من القطرين على أسس حديثة (٣) .

ورأى الكواكبي ضرورة أن يكون حاكم العرب عربياً حتى يحصل الانسجام بين الحاكم والمحكوم بل رأى وجود غير العربى فى الحكم خسراناً مبيناً فقال :

(أما عدم التطابق فى الأخلاق بين الراعى والرعية فله شأن عظيم) وضرب أمثلة بالقواد الذين كانوا يقودون أبناء جنسهم فانتصروا لأن

---

(١) لاحظ يقظة العرب .

(٢) كان نجيب عازورى يتكلم باسم عصبة الوطن العربى وهو من مسيحى فلسطين ، وقد لخص لى فكرة المؤلف اللواء الركن عبد المطلب الأمين مشكوراً .

(٣) الشهابى ص ٥٨ و ٥٩ .

يجدو دهم من أبناء قومهم : — قال (وهذا التطابق وحده يجعل الأمة تعتبر رئيسها رأسها فتتفانى دون حفظه ودون حكم نفسها حيث لا يكون لها فى غير ذلك فلاح أبداً كما قال الحكيم المتنبى :

وإنما الناس بالملوك ولا يفلح عرب ملوكها عجم(١)

وتوضحت نظرته القومية حينما دعا إلى ضرورة اتحاد كلمة العرب دون أن يعول على الدين وضرب مثلا فى أمريكا التى توحدت على اختلاف الأديان والقوميات فقال : (وأنتم أيها العرب من غير المسلمين أدعوكم إلى تناسى الأحقاد وأجلكم عن ألا تهتدوا إلى وسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون ، فهذه أمم أمريكا قد هداها العلم للاتحاد الوطنى دون الدينى . فما بالنا نحن لا نفكر فى ألا نتبع إحدى تلك الطرائق فيقول علماؤنا لمثيرى الشحناء من الأعاجم والأجانب بيننا دعونا يا هؤلاء ، نحن تدبر شأننا دعونا نجتمع على كلمات سواء) (٢) .

وقد أيد الشيخ محمد رشيد رضا آراء الكواكبى ونشرها فشجع على بث الفكرة القومية وشجع على رسوخ القومية العربيه فى هذا القرن نمو هذه الروح فى أوربا ولا سيما فى إيطاليا وألمانيا اللتين كان انتصار القومية فيهما سبباً فى تفتح الذهن العربى ونمو وعيه الكامن .

وبذلك تبدل الفكر الإسلامى العربى وتطور فقد بدأ أولا مطالباً باصلاح أحوال المجتمع الإسلامى المتأخر وإنقاذه من الفساد والخرافات التى تفشت فيه ثم أخذ يطالب بالتمتع بالحقوق السياسية للعرب والمساهمة فى الإدارة المركزية مساهمة فعلية وإنشاء إدارة لا مركزية فى الولايات

---

(١) أم القرى ص ١٦٨ ط ١٩٥٩ . حلب

(٢) طبائع الاستبداد الجذور التاريخية للقومية العربية للدكتور عبد العزيز الدورى ص ٥٩ و ٦٠ بيروت ١٩٦٠

العربية وجعل اللغة العربية لغة التخاطب فى مجلس الأمة وأن تؤدى الخدمة العسكرية فى البلاد العربية (١) .

ولكن تصرفات جمعية الاتحاد والترقى والحمى الطورانية التى قوبل بها العرب من اضطهاد دعاهم إلى المناداة بفصل الولايات العربية عن الدولة العثمانية وأن يكون الحجاز مقراً لخلافة عربية ويكون الشام والعراق دولة عربية تقوم على أسس حديثة لها (٢) وأخيرا الدعوة إلى وحدة عربية(٣) لأن الدولة العثمانية لم تكن تحرك ساكناً عندما استولى الأربيون على أجزاء من العربى ثم أنهم استعمروا جزءاً كبيراً منه .

ومن الطريف أن يذكر الأستاذ ساطع الحصرى بأن جمال الدين الأفغانى - وهو من قادة الدعوة إلى الوحدة الإسلامية وإصلاح الدين الإسلامى مما علق به من خرافات والذى أصدر العروة الوثقى فى سبيل بث هذه الآراء وتحمل فى سبيل آرائه ما تحمل - ، أخذ يدعو إلى وحدة قومية تقوم على اللغة والجنس فقد استشهد بإحدى مقالاته التى كتبها باللغة الفارسية والتى منها قوله :

(لا سعادة إلا بالجنسية (يعنى القومية) ولا جنسية إلا باللغة . . إن الروابط التى تربط جماعات كبيرة من الناس اثنتان وحدة اللغة ووحدة الدين . . وحدة اللغة ، هى الأساس الذى تقوم عليه الجنسية . . اللغة أشد ثباتاً وأكثر دواماً من الدين)(٤) .

---

(١) راجع مؤتمر الشهداء ص ١١٢ بصدد قرارات المؤتمر العربى الأول .

(٢) القوميه العربية تاريخها وقوامها ومراميها الأمير مصطفى الشهابى القاهرة ١٩٦١ ص ٥٨ عن كتاب يقظة العرب فى آسيا العثمانية ط باريس ١٩٠٥ لنجيب عازورى .

(٣) البلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصرى

(٤) ما هى القومية الأستاذ ساطع الحصرى ص ٢٠٧ بيروت ١٩٥٩

الإسلام والعرب :

ورغم وجود بعض المفكرين الداعين إلى القومية العربية فقد بقيت الدعوة القومية تسير مع الدعوة الإسلامية إذ لم يكن هناك اختلاف بين بين الدعوتين ولأن العرب دائماً يعتبرون الذى يتكلم العربية ومن يروم أن يكون عربياً فهو عربي وقد سن هذه السنة النبي الكريم فقد ورد فى تاريخ ابن عساكر أيها الناس إن الرب واحد والأب واحد ، ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى اللسان فمن تكلم العربية فهو عربى »(١) وبذلك جعل الجاحظ الموالى عرباً على أساس تعلمهم اللغة العربية والعادات العربية .

وقد انتشر هذا المفهوم عند العرب فكانوا يجعلون للمسلمين ما لهم وما عليهم واعتبروا المسلمين عرباً وقد أكد الدكتور الدورى هذا المعنى الذى انتشر بعد الفتوح(٢) وفى الطبرى نص يؤكد هذا الأمر إذ كتب هانئ ابن هانى « إن الناس قد أسلموا وبنوا المساجد فجاء دهاقين بخارى إلى أشرس فقالوا ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً ، ويريد بكلمة (العرب) المسلمين الجدد من الفرس(٣) .

وقد بقيت الثقافة العربية هى الصفة المميزة لجميع البلاد الإسلامية وما كان غير العربى يرى فى ذلك ضيراً لأن الإسلام ساوى بينهم ولأن الحضارة الإسلامية شملت البشر جميعاً على قاعدة « إن أكرمكم عند الله أتقاكم ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » ولم يجحد غير العرب فضل العرب على العالم بل كان يعدد مزاياهم ومكارمهم وهذا دليل واضح على سمو الفكر

---

(١) القومية العربية ـ الشهابى ص ٣٤

(٢) الجذور التاريخية للقومية العربية ص ٤٤ و ٤٥

(٣) الطبرى حوادث سنه ١١٠ والجذور التاريخيه . ص ١٧

العربى والحضارة الاسلامية وسمو المدنية العربية وإنسانيتها وترك كل ما هو عربى وإسلامى ، وبذلك كان رد الفعل العربى قوياً عميقاً ولا سيما بعد أن شنق جمال باشا خيرة الشباب العربى الذين عملوا معه(١)

الطورانية :

ولما انتشرت الدعوة الطورانية فى البلاد العربية كان رد الفعل لها فى البلاد العربية التأكيد على ضرورة وجود كيان عربى متميز لأن جمعية الاتحاد والترقى تبنت الدعوة إلى إذابة العناصر غير التركية .

كانت جمعية تركيا الفتاة تضم جماعة من العرب الآملين بأن ينالوا بعد فوزها قسماً (من حقوقهم السياسية وأن يحتفظوا فى نطاق الدولة بقوميتهم وبلغتهم وأن يعيشوا فى بلادهم عيشاً كريماً . .) ولكن الجمعية بدلا من أن ترعى العرب أخذت (تدعو إلى ضم شتات التتر والمغول فى امبراطورية واحدة أما الدولة العثمانية فهى فى نظرهم دولة تركية ليس غير) وعلى الشعوب الأخرى أن يصبحوا أتراكاً ودعا غلاتهم إلى التنكر للإسلام ورفع أسماء الخلفاء الراشدين من المساجد وأن تستبدل بها أسماء جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك(٢) ومع أن هؤلاء كانوا قلة إلا أنهم كانوا هم المسيطرين فجروا البلاد إلى أسوأ النتائج بسبب نظرتهم إلى العرب على انهم أمة محكومة من قبلهم فقد جاء فى جريدة (إقدام) ان الأتراك لهم الحق فى أن يحكموا العرب تماماً كما يحكم الفرنسيون أهل الجزائر وكما يحكم الإنكليز الهند) (٣) .

---

(١) الجمعيات السريه فى الآستانه مثل جمعيه الإخاء العربى والمنتدى الأدبى والجمعيه القحطانيه فى مصر الجمعيه الثورية العربية اللامركزية انتقلت إلى لبنان وسورية فى بادىء العهد انتشرت فى جميع مراكز النشاط فى بيروت النهضة اللبنانية انتقلت إلى جميع المهاجر فى مصر وأوربا وأمريكا لاحظ مؤتمر الشهداء ص ٩٤

(٢) الشهابى ص ٦٣

(٣) مؤتمر الشهداء ص ٢٩

وورد فى كتاب الكاتب التركى الشهير جلال نورى (تاريخ المستقبل) ما نصه :

« إن المصلحة تقضى على حكومة الآستانة بإكراه السوريين على ترك بلادهم وان بلاد العرب ولا سيما اليمن والعراق يجب تحويلها إلى مستعمرات تركية لنشر اللغة التركية التى يجب أن تكون لغة الدين » (١).

ومع ان سياسة الاتحاديين هذه انتقدت من عقلائهم كالدكتور رضا توفيق الذى عد السكوت على سياستهم خيانة لا يغتفرها الوطن إلا أنهم استمروا فى أعمالهم وملاحقتهم للعرب (٢) . هذه الملاحقة أشعلت الوعى القومى الكامن فى النفوس وأججت الشعور الوطنى وبدا الشعور العربى يبرز جلياً وأخذت تتألف الجمعيات السرية والعلنية لمحاربة تيار التتريك ومن هذه الجمعيات (الجمعية العلمية السورية) تأسست عام ١٨٥٧ (٣) لإحياء التراث العربى وكان أعضاؤها فيها من مختلف بلاد العرب وكان منهم إبراهيم اليازجى الذى دعا صراحة إلى محاربة الظلم ورفع النير عن كاهل العرب وله فى ذلك قصيدتان مشهورتان الأولى :

دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لواحظها النواعس

وفيها يخاطب العرب ويحرضهم على الثورة والقتال :

أولستم العرب الكرام ومن هم الشم المعاطس
فاستوقدوا لقتالهم ناراً تروع كل قابس

---

(١) مؤتمر الشهداء ص ٤١ ولاحظ ص ٤٢ و ٤٤ و ٤٥ و ٢٤

(٢) مؤتمر الشهداء ص ٣٠

(٣) فى شأن الجمعيات راجع الشهابى .

(*) لمعاهد المحاكم وأسماء القتلى يراجع مؤتمر الشهداء وغيرها من كتب التاريخ

أما القصيدة الثانية فهي أشهر من الأولى والتي يقول فيها :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طما الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخدعكم
وأنتم بين راحات القنا سلب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم
تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

وقد ذكر الأمير الشهابي عدة جمعيات وحلقات أدبية كانت غايتها الأساسية سياسية ومظهرها أدبياً (١) ومن الواضح أن وجود الجمعيات والحلقات الأدبية معناه ان الفكر العربي كان متمثلا في الأدب وقد كانت القيادة الفكرية والسياسية خير داع إلى القومية العربية والوعي القومي .

العراق :

أما في العراق فقد ظهرت بوادر الدعوة القومية عندما أساء الموظفون الأتراك إلى بعض الأسر ووجدنا آثارها تذهب إلى القرن الثامن عشر عندما حاول سليمان الشاوي شرح قصيدة الشنفري لشحذ همم العرب (٢) والحرص على إبقاء العنصر العربي طاهراً لا تشوبه شائبة غريبة من العناصر الأجنبية (٣) ويعاتب من يجحد للعرب مكانتهم العالية (٤) وظهرت الدعوة القومية بصور شتى منها الدعوة إلى الإصلاح والثورة على الفساد والمطالبة

(١) من هذه الحلقات حلقة الشيخ طاهر الجزائري وحلقة دمشق وجمعية النهضة العربية

(٢) سكب الأدب وهي قصيدة الشنفري شرحها سليمان الشاوي لاحظ الشعر العراقي في القرن التاسع عشر للكاتب

(٣) الجمان المنضد في مدح الوزير أحمد ص ١٤ و ١٥ لمحمد الغلامي وشرح رؤوف الغلامي ط. الموصل سنة ١٩٤٠ .

(٤) ديوان الطباطبائي ٢٠٦

بالحرية(١) وقد ظهرت الدعوة واضحة عندما تبرم أهل العراق بسوء معاملة الأتراك لهم فقد قال الشاعر :

والترك إن تدنو لهم يبعدوا يصبحوا فى غلمانهم قاوسنه
بن الورا ابنا عرب يوزبرن الله بلا ورسن وقد صنصنه
ياليتنا متنا قبيـــل الأذى وقبل هـذا الذل والمسكنة(٢)

وقد وجدنا هذه الروح عند أكثر من شاعر فى القرن التاسع عشر مثل عبد الغفار الأخرس وعبد الغنى الجميلى وعبد الحميد الشاوى وعبد الباقى العمرى ومحمود شكرى الآلوسى وأبى الثناء الآلوسى والقزوينى . وقد كانت هذه الدعوات تظهر تارة بالشكوى من الجور الذى حل بالعراق وتارة باستغلال الحاكمين الشعب وطوراً بالدعوة إلى تطبيق الشرع الإسلامى الشريف وطوراً بالتحسر على أيام بغداد فى عزها المجيد وكيف آل الأمر فيها إلى حكام لا يرعون ذمة فقال عبد الغنى الجميل :

لهفى على بغـداد من بلدة وقد عشعش العز بها ثم طار
كانت عروساً مثل شمس الضحى لمستعير حليهـا لا يعار
كانت بهـا للنفس ما تشتهى كجنة الخلد ، ودار القرار
كانت لآساد الوغى منزلا والخائف الجانى بهـا يستجار
كانت يميطون الأذى أهلها عن كل آت حيها مستطار
واليوم ، لا مأوى لذى فاقة فيها ولا فى أهلها مستجار
واليوم قد حل بها من ترى فانفر والا بيديك الخيـار
لم يرقبوا إلا ولا ذمـة فينا ، ولا عذراً لذى اعتذار
حل بهـا قوم وهم فى عمى ما ميزوا أشرارها والخيار

(١) الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر لاحظ باب القومية .
(٢) شمامة العنبر لمحمد مصطفى الغلامى ١٠٣ .

وأصبح القرد بهـا مقتدى   يلعب بالألباب لعب القمار(١)

ثم قال صراحة :

لا يشتفى غيظ أخى نخوة   إلا إذا جرد بيض الشفار

وقد وجدت فى شعر الشعراء ذكراً للجور وأنه طغى وعم وأن من ساد على العراقين ليس جديراً بالحكم والسيادة ويدعو ابن الجميل فى شعره صراحة إلى ثورة عربية إذ رأى الحاكمين لا تميزهم عن العرب قوة أو ميزة غير جبروتهم وعتوهم واعتدائهم على أبناء الوطن وإهمال شأنه فيقول :

متى يلثم الليات رمحى وترتوى
سيوف بأعناق اللئام صليلها
وحولى رجال من معد ويعرب
مصاليت للحرب العوان قبولها
إذا أوقدوا للحرب ناراً تأججت
مجامرها والبيض تدمى نصولها
وبالسمر تحمى البيض شبان حيهم
وبالبيض تحمى السمر قسراً كهولها
يهشون للعافى إذا ضاق رحبهم
وجوه كأسياف يضىء صقيلها

وتؤوب الحسرة فى نفسه لوعة جارحة لأن العرب لم يستجيبوا لندائه :

إلى الله أشكو عصبة قد تواطأت   على دخن بغياً فضلت عقولها(٢)

---

(١) غرائب الاغتراب ص ٢١١ لأبى الثناء شهاب الدين الآلوسى طبع بغداد ١٣٢٨ .

(٢) غرائب الاغتراب ص ٢١٨ — ٢٢٤ وديوان الأخرس ص ٤٧١ .

والقزويني يقول :

وكم لملوك الترك هتك لحرمة   لأهل النهى والهتك من شيم الترك
وما خلت حتى سرت فى الفلك أننى   أرى الفلك الإعلى يسير فى الفلك(١)

وأمانى أحمد الشاوى الانتقام ممن لم يرعوا للإسلام ذمة :

ألا ليت شعرى والأمانى ضلة   وعمر الفتى إن عاش ماعاش للهلك
أتخترمنى ريب المنون ولم أكن   لأدرك للإسلام ثاراً من الشرك
وأبرد من صهب العثانين غلتى   وأشفى واشتفى غليلى من الترك(٢)

وقال محمد الهاشمى :

تركوك يالغة النبى وآثروا   فى المسلمين سياسة التتريك

التيار القومى والإسلامى والشعر :

وبقيت الفكرتان القومية والإسلامية تسيران متقاربتين تارة ومتباعدتين تارة أخرى لأن الوحدة العربية ضرورة من ضرورات الوحدة الإسلامية ودعامة من دعامتها القوية وليس من السهل على أديب تثقف بثقافة عربية إسلامية أن يفرق بين الوحدتين فالعربى من كانت لغته العربية سواء أكان عربياً أم غير عربى فقد كان الرصافى داعياً من دعاة الوحدة العربية والإسلامية ولكنه دعا إلى وحدة عربية بلا تمييز بين الطوائف فقال : من قصيدة له :

عدوا النصارى وعدو المسلمين بها   ونحن نعهدهم طراً اعاربيا
أو فى مصالح دنياهم وهم عرب   جاءوا على حسب الأديان ترتيباً

---

(١) ديوان القزوينى ص ٢٢٠ و ٢٢١

(٢) الشعر العراقي في القرن التاسع عشر ط ١ ص ١٨٦

ما ضرهم لو نحوا فى الأمر جامعة تنفى الكنائس عنها والمحاريبا(١)

وقد كانت الأخلاق العربية مثلا عالياً يحتذى فى السمو والحمد بالخلال العربية .

أما وخـــلال فيكم عربية وذا قسم لو تعلمون مؤكد(٢)

والمكارم العربية تتمثل فى النبل والوفاء ومن يتخلى عن الخلال العربية السامية لا يعده الشاعر من العرب ويبرىء العرب من أية جماعة لا تتحلى بمثل هذه المكارم.

برئت للعرب العرباء من فئة ينمون للعرب إلا أنهم سقط
أين المكارم إن هم أصبحوا عربا فإنها من طباع العرب تشترط(٣)

ووجود الدين سواء الإسلامي أو المسيحى لا يمنع من هذه الوحدة فقال :

إذا جمعتنا وحدة وطنية فماذا علينا أن تعدد أديان
إذا القوم عمتهم أمور ثلاثة لسان وأوطان وبالله إيمان
فأى اعتقاد مانع من أخوة بها قال إنجيل كما قال قرآن
نمتكم إلى المجد المؤثل تغلب كما قد نمتكم للمكارم غسان
أجب أيها الندب المسيحى مسلماً صفا لك منه اليوم سر وإعلان
فلا تحرما الأوطان أن تتحالفا يداً بيد حتى تؤكد أيمان
ألا فانهضا نحو العدا وكلاكما لصاحبه فى المأزق الضنك معوان

---

(١) ديوان الرصافى الطبعة السادسة القاهره ١٩٥٩ ص ٢٠٤ و ٤٠٣
(٢) الديوان ص ٨٥
(٣) الديوان ص ٤٠٨

وقولا لمن قد لامنا ويئك إننا على كل حال فى المواطن إخوان(١)

وقال :

تكلمت سور القرآن مفصحة

فأسكتت صخب الأرماح والقضب

وقام خير قريش وابن سادتها

يدعو إلى الله فى عزم وفى دأب

بمنطق هاشمى الوشى لو نسجت

منه الأصائل لم تنصل ولم تغب(٢)

وفى شعر الرصافى الكثير من هذه الآراء ومن يراجع الديوان يجد ذلك واضحاً وقد كان يرى الوحدة سبباً فى قوة العرب وبغيرها لن يكون تقدم ولا حضارة كقوله :

قد أنهضتهم إلى العلياء وحدتهم

واليوم أقعدهم عنها إذا انقسموا(٣)

وللجارم شعر كثير أشاد فيه بالرابطة الإسلامية والعربية فقال :

لى بينكم صلة عزت أواصرها لأنها صلة القرآن والنسب(٤)

ويناجى بغداد والعراق بقوله :

---

(١) الديوان ص ١٣١

(٢) المصدر نفسه ص ٦٣

(٣) يلاحظ فى الديوان إلى الشبان ص ٦٥ ويقظة الشرق ٢٦٥ وإلى الامه العربيه ٣٩٤ وصبح الأمانى ٤١٥ وبعد النزوح ٤٢٦ ونحن والحالة العالميه ٤٧٤ ورؤيا صادقه ٤٩٢ وقصر الحمراء ٥٠٠ و ٠

(٤) ديوان الجارم طبعة دار المعارف القاهرة ص ٦٠ ج ٣

حبيب إلى نفسي العراق وأهله
وسالفه الزاهي المجيد وحاضره
ديار بها الإسلام أرسل ضوءه
فسار مسير الشمس في الأفق سائره
ومدت به الآداب ظلا على الورى
تساوت به آصاله وهواجره(١)

بل يجعل الإسلام فوق كل اعتبار عندما يقول:

فليس لدى الإسلام شرق ومشرق
وليس لدى الإسلام غرب ومغرب
هم الناس إخوان سواء على الهدى
بطيء المساعي والشريف المهيب
فما حط من قدر (الفزاري) فاقة
ولا زاد في قدر ابن (أيهم) منصب
يجمعهم قلب، على الحق، واحد
وإن فرقت أوطانهم وتشعبوا
إذا صاح في (جيحون) يوماً مؤذن
أجاب على (التاميز) داع مثوب
وإن ذرفت من جفن (دجلة) دمعة
رأيت دموع (النيل) حيرى تصيب

---

(١) ألقى القصيدة في رثاء الزهاوي في ١٢ شباط سنة ١٩٣٧ لاحظ ديوان الجارم ٢ ص ١١٤

وإن مس جرح من(فلسطين) إصبعاً
شكا (حاجر) منه وأن (المحصب)(١)

وأكثر شعراء مصر حافظوا على الوحدة الإسلامية والقومية في شعرهم ومن هؤلاء أحمد محرم ومحمد عبدالمطلب وشوقي وحافظ وخليل مطران(٢) مع أنهم كانوا أميل إلى الإسلام بل كانوا أولا ضد الحركة القومية العربية لأنها كانت خروجاً على الخلافة الإسلامية .

المسيحيون والإسلام :

وقد ساهم إخواننا المسيحيون مساهمة واضحة في القومية العربية فقد جعلوا النبي محمداً زعيما عربياً وحد شملهم فقد قال جورج سلستي لما رأى ما حاق بالعرب من ذل وتفرقة .

يا سيدي يا رسول الله روعنا ... صرف الزمان بشر منه مسعور
وامتد بالعرب ليل النائبات أما ... للفجر بعد الدياجي من تباشير ؟
فاشفع فإنك أدنى المرسلين إلى البـ ... ـارى فنسلم من ذل وتعيير (٣)

والطريف أن يقول وصفي قرنفلي من قصيدة :

قد يقولون شاعر نصراني ... يرسل الحب في كذاب البيان
كذبوا والرسول لم يجر يوماً ... بخلاف الذى أكن لساني
أو عار على فتى يعربى ... يتغنى بالسيد العدناني
أفكنا لولا الرسول سوى العبـ ... ـدان بئست معيشة العبدان

---

(١) ديوان الجارم ج ٤ ص ٣
(٢) لاحظ (التراث الروحي والشعر الحديث) والقومية العربية في الشعر للدكتور الحوفي
(٣) القومية العربية في الشعر الحديث للدكتور أحمد الحوفي ط القاهرة سنة ٦٦ ص ٣٤٣

أو ليس الوفاء أن تخلص المنقذ   حباً إن كنت ذا وجدان(١)؟

ورأى المسيحيون أن مجد الإسلام هو مجدهم فتجد مطران ورشيد سليم الخورى وإلياس فرحات وعادل الغضبان(٢) كلهم لسان شعر جميل فقد قال رشيد سليم الخورى :

أتجف أوراق العروبة فى ربا   لبنان وهى نضيرة فى (يذبل)
أتريد أعظم من أبى بكر ومن   عمر إذا انتسب الكرام ومن على(٣)

وقال :

هبونى ديناً يجعل العرب أمة   وسيروا بجثمانى على دين برهم

الأجنبى والقومية :

والواقع أن الاستعمار يقف أمام اتحاد الأمم دائماً وخاصة القوية الجانب وهو الذى يفرق الصفوف ويبث الأحن والعداوات بين أبناء الأمة الواحدة وفى الجفاء الذى نشب بين الأقباط والمسلمين فى مصر سنة ١٩٠٨ وقبلها ماحصل فى سورية (لبنان) ١٨٦٠ وفى الخصومات التى حدثت بين أبناء العرب وبين المسلمين أنفسهم خير دليل على هذا القول وقد كان الشعراء والأدباء خاصة يقفون أمام هذه الحركات محاولين جهدهم أن يحل التصافى بين أبناء الوطن الواحد وما تزال هذه الحزازات تجد طريقها إلى النفوس فقد قال عوض واصف :

أبناؤها عبد المسيح وأحمد   والموسوى وليس ثم دخيل
لا فرق بين العالمين وأرضهم   وطن وحيد والجميع سليل

---

(١) المصدر السابق .   (٢) راجع مهرجان الشعر الخامس ص ٧٣

(٣) الحوافي القومية العربية ص ٣٤٩ وأدبنا وأدباؤنا في المهاجر ص ٣٧٩

هل فى السماء مذاهب وعناصر ؟ هل ثم إلا صاحب وخليل؟(١)

وقال بولس سلامة :

وبظل مئذنة وباحة مسجد فالعلم فى لبنان شد ولاء
نهج البلاغة نهجنا وعليُّه ملك البيان وسدرة الأدباء (٢)

وقال الأديب مارون عبود وقد سمى ابنه محمداً اعتزازاً باسم النبي محمد(ص)

عشت يا بني عشت يا خير صبي ولدته أمـــه فى رجب
أمه ما ولدته مسلماً أو مسيحياً ولكن عربي

الزهاوى :

وقد جعل الزهاوى للفكر أهمية كبيرة فى تقريب العرب لأن الفكر أقرب قرابة وأشد رابطة من الوحدة العربية السياسية فقد قال فى قصيدة (العراق فى مصر) التى نظمها متأخراً :

لقد جمعتنا وحدة عربية وأقرب منها بيننا وحدة الفكر
أرى فى لقاء الروح الروح فرحة تفوق لقاء العين والأوجه الغر

وقد حذر الزهاوى العرب من الاستعمار الذى يقف للوحدة العربية بالمرصاد كما حذرهم من غير المخلصين الذين يتخذون من الدعوة إلى الوحدة العربية سبيلا لأغراضهم ومآربهم ولم يجد الوحدة العربية صعبة المنال إذا صدقت النيات وفكر فى صيانتها المفكرون فقال فى قصيدة يرحب فيها بالمازنى وأسعد داغر :

---

(١) التراث الروحى والشعر الحديث ص ١٤ القاهرة ١٩٦٦
(٢) القومية العربية والشعر الحديث ص ٣١
(٣) الثمالة ص ٦٤

ما كان من هتفوا لتو	حيد العروبة لاعبينا
هى وحدة ميسورة	لولا يد للعابثينا
إن العروبة ليس تأ	من غارة المستعمرينا
إلا بوحدتها ونعـ	ـم وسيلة المتفكرينا
وهى التى اتحدت قد	يماً بينها لغة ودينا(١)

وبذلك تأثر الزهاوى فى القصيدتين بالتيار القومى العربى وأخذ يدعو إليه .

الكاظمى :

وقد كان الكاظمى يمثل الدعوة العربية تمثيلا واضحاً فهو عراقى سكن القاهرة وكان أمراء العرب يؤازرونه فى دعوته حتى إنه اعتبر ممثلا للدعوة العربية التى جند لها نفسه وأخلص لها كل الإخلاص فعالج مشكلات العرب معالجة عاطفية إلى جانب معالجته المنطقية ، مغتنماً كل فرصة ممكنة للدعوة لها فقد قال فى قصيده نظمها بعد عودة سعد زغلول من المنفى يصف حالة العرب وما يصبه عليهم المستعمرون فى مصر ودمشق وبغداد والقدس من ويلات ويؤكد ان هذا الأمر نتيجة لتفرق العرب ولو أنهم اتحدوا لما تجرأ المستعمر على هذا فقال :

وما بك يا مصر ببغداد نازل	وفى جلق أدهى وفى القدس أجسم
هنالك أحشاء تذوب وههنا	قلوب متى حركتها تتضرم
إذا ما توالى جرحنا وتعددت	مراهمه فالجرح للجرح مرهم
ستجمعنا الأيام والخير ضاحك	يعم الورى والشر يبكى ويلطم(٢)

---

(١) الثمالة ص ٦٨

(٢) الديوان ج ١ ص ٢٦٠ .

ولعل الكاظمى من أول الداعين وأكثر الناظمين فى الوحدة العربية بعد الرواد الأوائل فشعره فى الوحدة العربية كثير وهو على كثرته وانتشاره اتخذ لساناً للثورة العربية فى الحجاز وكانت له صلاته الخاصة بالأسرة الهاشمية التى كانت حريصة أشد الحرص على الوحدة العربية . وقد كان الكاظمى(١) يحس إحساس القائد المفكر الذى يريد أن ينهض قومه العرب فقال :

ردد الشجو فالمصائب أذكت جانحات وقرحت آماقا
تلك سورية التى سيروها أغلقوا النهج دونها إغلاقا
حملوها مالا تطيق وقالوا إن حمل الإذلال كان مطاقا(٢)

وتراه وكله عواطف صادقة وأحاسيس كريمة لكل شبر من بلاده لا فرق بينها فى الأسماء فهى أمة واحدة ووطن واحد وقال :

أحن إذا قيل العراق وأنحنى وأشهق إن قيل الشآم وأزفر
واطرق ان قيل الحجاز على جوى أعجب ما قيل مصر وأبهر
جميع بلاد العرب فى القدر واحد إذا وازنوا البلدان يوماً وقدروا(٣)

وسمى أحمد محرم العرب فى شعره « أمم العروبة » لتفرقهم ، وقال إنه يجب أن تتوحد هذه « الأمم » لتحمى حوزتها وتذود عن حماها وذلك فى قوله :

أمم العروبة لا نجاة لمدبر يبغى النجاة ولا حياة لمحجم
كونى جميعاً فالتفرق لم يزل مذ كان من نذر القضاء المبرم

(١) وقام السيد عبد الرحيم محمد على بجمع ما كتب عن الكاظمى بأربعة كتب هى : الكاظمى شاعر العرب وذكرى شاعر العرب والكاظمى شاعر الكفاح العربى الخالد والكاظمى فى كراه الثلاثين .

(٢) ديوان الكاظمى ج ٢ ص ١٥٣

(٣) ديوان الكاظمى ج ١ ص ٢٠١

ضمي القوى وتجمي في وحدة عربية تحمي اللواء وتحتمي(١)

ولا نكاد نجد شاعراً عربياً أو مسلماً لم يدع إلى وحدة العرب في مختلف أقطارهم في الشام وفلسين ومصر والعراق ولكننا نرى الدعوة في العراق أكثر ظهوراً وأشد حماسة ، وأوضح قصداً وأعمق عاطفة من الأقطار العربية . ذلك لأن عرب العراق كانوا أكثر احتكاكاً بالتيارات الطورانية وغيرها . . ؟ التي تريد ان تحول العراق عن ركبه العربي ومحو الشخصية العربية وقتل كل شعور العربي قومي في الماضي البعيد والقريب يضاف إلى ذلك أن هناك ثقافات قديمة لها رواسبها المتحجرة العريقة .

والعراق موطن هجرة العرب طوال العصور ، والجزيرة هي التي تغذيه ، فيأتي العربي وقد امتلأ رغبة في الاستقلال والحرية، فيجد أمامه أجنبياً يريد إذلاله ، وحضارات تريد أن تقيده وتفقده ذاته وليس من السهولة على العربي أن يفقد ذاته واستقلاله فيكون الثبات ويكون الصراع مريراً فيعمق الشعور القومي ويزداد العربي تمسكاً بتقاليده وايماناً بذاتيته العربية لأن قوته الفردية ومقوماته الحضارية وتراثه الثقافي تبقى عربية رغم احساسه الاسلامي. فوقف أمام كل تحديات الاجنبي وقد عللها الدكتور الدوري فقال :

« كان العراق منذ القدم الحد الشرقي للثقافة السامية تجاه ثقافة أخرى قوية هي الآرية ثم صار الحد الشرقي للثقافة العربية حفيدة الثقافة السامية ووريثتها تجاه الأعجمية فهو لذلك ساحة صراع سياسي ثقافي اجتماعي بين السامية وبين الآرية في القديم وبين العروبة والأعجمية بعد ظهور العرب على المسرح » (٢)

---

(١) الحوفي : القومية العربية ص ١٢٤

(٢) الجذور التاريخية للقومية العربية ص ٣٧ .

والعراقيون يؤلمهم ما يحيق باخوانهم العرب فى كل مكان سواء أكانوا بدمشق أم القاهرة أم غيرهما وقد قال الشبيبي :

ماذا بنا وبذى الديار يراد ؟ فقدت دمشق وقبلها بغداد
بردى وأودية الفرات ودجلة والنيل غص بمائك الوراد

ويرى الشبيبي ان الأجانب هم سبب نكبة العرب وهم أساس بليته فقال :

حال العلوج من الأحامر بيننا وتعذر الإصدار والإيراد
لاساغ ـ يابردى ـ الشراب ولاهنا عذب من الماء القراح يراد

ويقف بحسرة وألم عندما يرى رجالات العرب تتناحر فى سبيل أحقادها الشخصية وفى سبيل المصالح الفردية تدفعهم الأضغان والأحقاد فقال :

ما بين مصر والحجاز تطاحن ومن العراق إلى الخليج جلاد
يتزودون من التجـــلد كلما قل المتاع ، وخفت الأزواد

ويقول :

يا للرزية كم تفرق بيننا وتضلنا الأضغان والأحقاد(١)

رجال الدين :

وقد عارض قسم من رجال الدين (الفكرة القومية) عند ظهورها لاعتقادهم بمخالفتها للدين الاسلامى ولأنها تفصل العرب عن المسلمين ورأوا أن طاعة أوامر الخليفة واجب على المسلمين وقد أيدتهم الدولة العثمانية تأييداً مطلقاً ولما طالب العرب بحقوقهم باعتبار اللغة العربية لغة رسمية فى بلادهم حركت الحكومة أنصارها من رجال الدين فشنوا حملة شعواء وكتبوا

---

(١) ديوان الشبيبي ص ٣٣ ـ ٣٨

العرائض وجاءت وفود تؤكد الولاء للسدة العثمانية والخلافة الاسلامية ، واتخذوا من أحاديث الرسول التى تمنع العصبية للرد على دعاة العروبة ولم يسكت دعاة القومية على هؤلاء وردوا بأن العصبية هى العصبية الجاهلية (١)

وما كان يجرؤ بادئ الأمر القادة بالدعوة إلى القومية والدعوة إلى حكم عربى إذ كان الشعور العام ضد الدعوة إليها وعندما ثار عرابى على الانكليز نفى انه يريد تأسيس دولة عربية وعدهذا الأمر خروجاً على طاعة الله ورسوله.

والفكر العربى ما زال مضطرباً فى كثير من الأقطار العربية وما زالت القومية العربية تعيش فى قلق فى أذهان العرب لأن الفكر العربى بحاجة شديدة إلى وضع أسس علمية عامة تبعد عن أذهان قادة الرأى والسياسة القيم والأحلام البعيدة عن واقع الحياة العربية .

ولا يمكن للفكر العربى القومى أن تعمق جذوره إلا بدراسة جديدة له وشرح قواعده وجذوره ومفاهيمه وإلا أصيب بخيبة أمل أخرى خاصة لأولئك الذين يرون فى الدعوة القومية خطراً على تيار الفكر الاسلامى (٢)

---

(١) ما هى القومية لساطع الحصرى .

(٢) وقد كان الفرنسيون يروجون بان القومية العربية فكرة إسلامية القصد منها أن يتسلط المسلمون على المسيحيين لاحظ الوحدة العربية ص ٣٤١ محمد عزة دروزة .

نصوص للدراسة

معروف الرصافى

إلى العمال

كل مافى البلاد من أموال   ليس إلا نتيجة الأعمال
إن يطب فى حياتنا الاجتماعية   عيش فالفضل للعمال
وإذا كان فى البـــلاد ثراء   فبفضل الإنتاج والابذال
نحن خلق المقـــدرات وفيها   لا حياة للعاطل المكسال
عندنا اليوم فى الحيـــاة نظام   قد حوى كل باطل ومحال
حيث يسعى الفقير سعى أجير   لغنى مستأثر بالغلال
فترى المكثرين فى طيب عيش   أرغدته لهم يد الإقلال
وترى الغائصين فى البحر أمسى   لسواهم ما أخرجوا من لآلى
وترى المعسرين فى كل أرض   كعبيد للموسرين موالى
أكثر الناس يكدحون لقوم   قعدوا فى قصورهم والعلالى
واحد فى النعيم يلهو وألف   فى شقاء وأبؤس واعتلال
حالة فى معاشنا أسلكتنا   طرقات الخاتل المحتال
فـــترانا بعضاً لبعض لبسنا   من خياناتنا مسوح الثعالى
تلك عاد مستهجنات ورثنا   ها قديمـا من العصور الخوالى
فإلى كم نشـــقى وحتى م نبقى   هكذا فى عماية وضلال
إنما الحق مذهب الاشتراكية   فيها يختص فى الأموال
مذهب قد نمـا إليـــه أبو ذر   قديمـا فى غابر الأجيال
ليس فضل الزكاة فى الشرع إلا   خطوة نحو مبتغاه العالى
مبـــدأ ذو مقاعد ضامنات   ما لأهل الحيـــاة من آمال

موصلات إلى السعادة فى العيـ ش هواد إلى طريق التعالى
ليس للمرء أن يعيش بلا كـ د وإن كان من عظام الرجال
كل مجد يبنى على غير مسعى فهو مجـد مهـدد بالزوال
ليس قدر الفتى من العيش إلا قدر إنتـاج سعيه المتوالى
مارؤوس الأموال إلا أداة المساعى كالحبـل للأحمال
مثل شد الأحمال شد المساعى ودنانيرها لها كالجبال
صاح ماذا تجدى الدنانير لولا همم الدائبين فى الأشغـال
أفتأتى من الطعام بديلا أفتغنى عن كسوة ونعال
حاجة المرء أكلة وكساء وسوى ذاك بسطة فى الكمال
إن للعيش حومـة فى وغاها لاتحق الحيـاة للبطـال
إنها مثل حومه الحرب مادا رت رحاها إلا على الأبطال
وسوى الحذق مابها من سلاح وسوى الكد مابها من قتال
بطل الحرب مثله بطل السعى ومنـه الأعمال مثل الصيال
ونشاط منه ببيض المساعى مثـل إشراعه لسل العوال
أيها العاملون إن اتحاداً بينكم مُرخص لكم كل غالى
مالعيش تشقون فيـه سقاما بسوى الاتحـاد من إبلال
فليكن بعضكم لبعض نصيراً ومعينا له على كل حال
وإذا قلت أنكم أنتم النا س جميعاً فلا أكون مغالى
فاعملوا دائبين غير كسالى وارقبو مابه ستأتى الليالى
ثم قولوا معي مقالا رفيع الصـ وت تحيا زمرة العمال

آل السلطنة

هم يعدون بالمئات ذكوراً　　وإناثا لهم قصور مشاله
ولهم أعبد بها وإماء　　ونعيم ورفعة وجلاله
تركوا السعى والتكسب فى الد　　نيا وعاشوا على الرعية عاله
يتجلى النعيم فيهم فتبكى　　أعين السعى من نعيم البطاله
يأكلون اللباب من كد قوم　　أعوزتهم سخينة من نخاله
فكأن الأنام يشقون كدا　　كى تنال النعيم تلك السلاله
وكأن الإله قد خلق النا　　س لحيا آل السلاطين آله
نعموا فى غضارة الملك عيشا　　وحملنا من دونهم أثقاله
فإذا صاول العدو خرجنا　　دونهم للوغى نرد صياله
وإذا هم جروا الجرائر يوما　　فعلينا تكون فيها الحماله
قد رضينا بذاك لولا عتو　　أظهروه لنا على كل حاله
مابهم مايميزهم عن بنى السو　　قة إلا رسوخهم فى الجهاله
هم من الناس حيث لو غُربل النا　　س لكانوا نفاية وحثاله
ومن الناس حيث لو صور الجه　　ل لكانوا بين الورى تمثاله
حملونا من عيشهم كل عبء　　ثم زادو أصهارهم والكلاله
فكفينا أصهارهم مؤنة العيش　　فكانو ضغثاً على إباله
تلك والله حالة يقشعر الحـ　　ق منها وتشمئز العداله
هى منهم دناءة وشنار　　وهى منا حماقة وضلاله
ليس هذا فى مذهب الاشتراكية إلا من الأمور المحاله
وهو فى الملة الحنيفية البيضاء كفر بربنا ذي الجلاله

جزء من قصيدة

يوم سنغافورة

هنالك حفرة الأطماع يمسى   خداع الإنكليز بها دفينا
وتحتدم الحفائظ فى البرايا   فتضرم فوق مدفنه أتونا
وتتسع السياسة للتصافى   فيستصفى الخدين بها الخدينا
ويصبح كل تمويه وغش   لأنظار البرية مستبيناً
ويصبح كل خداع كذوب   رجيما فى سياسته لعينا
ويصبح كل شعب مستقلا   عزيزا لن يذل ولن يهونا
ويمسى الناس قاطبة سواء   بدين إخوة متدينينا
يعاون بعضهم بعضاً ويُؤوى   قويهم الضعيف المستكينا
تسير بهم شرائع عادلات   إلى أوج السعادة مرتقينا
سواء لايفرقهم لسان   ولا دين به يتعبدونا
فما من سائد أو من مسود   ولا من دائن يربى الديونا
ويصبح كل محترث مشاعا   لمن فيه ثووا متوطنينا
وما أهل البلاد سوى عيال   على العمل الذى هم يحسنونا

جزء من قصيدة معترك الحياة

أرى كل ذى فقر لدى كل ذى غنى — أجيراً له مستخدماً فى عقاره
ولم يعطه إلا اليسير وإنما — على كده قامت صروح يساره
ويلبس من تذليله العز ضافياً — وينظره شزراً بعين احتقاره
يشد الغنى أزر الغنى فى حياته — وما الفقر إلا مكسر فى فقاره
وليس الغنى إلا غنى العلم إنه — لنور الغنى يجلو ظلام افتقاره
ولا تحسبن العلم فى الناس منجياً — إذا نكبت أخلاقهم عن مناره
وما العلم إلا النور يجلو دجى العمى — ولكن تزيغ العين عند انكساره
فما فاسد الأخلاق بالعلم مفلحاً — وإن كان بحراً زاخراً من بحاره

* * *

سل الفلك الدوار عن حركاته — فهل هو فيها دائر باختياره
وهل هو فى هذا الفضاء مسافر — له غاية مقصودة من سفاره
وهبنا جهلنا بدأه من تقاوم — فهل يدرك العقل انتهاء مداره
متى ينجلى ليل الشكوك عن النهى — وترفع كف العلم مرض ستاره
ألا ورى فى زند الزمان فنهتدى — بسقط ضئيل من سقيط شراره
أرى الدهر ليلاً كله غير مبصر — وإن كان فى رأد الضحى من نهاره
وأهليه ساروا خابطين ظلامه — وإن ركبوا فى السير متن بخاره

* * *

لعمرك إن الدهر يجرى لغاية — فإن شئت أن تحيا سعيداً فجاره
وها هو ذا يعدو فيبتدر المدى — وينهب أعمار الورى فى ابتداره

لقد فاز من بارى جديديه جده ... وخاب الذى فى جده لم يباره
وايست حياة الناس إلا تجدداً ... مع الدهر فى إيباسه واخضراره
وما الناس إلا الماء يحييه جريه ... ويرديه مكث دائم فى قراره

* * *

لك الخير هل للشرق يقظة ناهض ... فقد طال نوم القوم بين دياره
ألم تر أن الغرب أصلت سيفه ... عليهم وهم لاهون تحت غراره
وبادرهم كالسيل عند انحداره ... وهم فى مهاوى غفلة عن بداره
أما آن للساهين أن يأبهوا له ... وقد أصبحوا فى قبضة من إساره
تراهم جميعاً بين حيران واجم ... وآخر يطرى ماضياً فى فخاره

حافظ إبراهيم :

أماني الشاعر

أمانيك الكبرى وهمك أن ترى ... بأرجاء وادى النيل شعبا منعما
وأن تبنى المجد الذى مال ركنه ... وأن ترهف السيف الذى قد تثلما
دعوت لمصر أن تسود وكم دعت ... لك الله مصر أن تعيش وتسلما
فليت ملوك المسلمين تشبهوا ... بملك إذا ما أحجم الدهر أقدما
سليل ملوك يشهد الله أنهم ... أقاموا عمود الدين لما تهدما
لئن بات بالمجد المؤثل مغرما ... لقد كان (إبراهيم) بالمجد مغرما
وإن تام حب المكرمات فؤاده ... لقد كان (إسماعيل) فيها متيما
وإن سكنت تقوى المهيمن قلبه ... فقد كان منها قلب (توفيق) مفعما
وإن بات نهاضا بمصر إلى الذرا ... فمن جده الأعلى (على) تعلما
حوى ما حوى من مجدهم ونجارهم ... وزاد فأعيا المادحين وأفحما
دعوا بك واستسقوا فلبى دعاءهم ... من الأفق هتان من المزن قد همى
ألح على أوعارهم وسهولهم ... وحيا عبوس القفر حتى تبسما
ولما طوى بطحاء مكة هزه ... إلى البيت سوق المستهام فيمما
أطاف به ثم انثنى عن فنائه ... ولو عب منه (السامرى) لأسلما
طلعت عليهم أسعد الخلق مطلعا ... وعدت إلينا أيمن الخلق مقدما
رجعت وقد داويت بالجود فقرهم ... وكنت لهم فى موسم الحج موسما
وأمنت للبيت الحرام طريقه ... وكان طريق البيت من قبلها دما
ويسرته حتى استطاع ركوبه ... أخو الفقر لا يطويه جوع ولا ظما
وجدت وجادت ربة الطهر والتقى ... على العام حتى أخصب العام منكما

فلم تبقيا فوق الجزيرة بائساً ... ولم تتركا فى ساحة البيت معدما
فأرضيتما الديان والدين كله ... لقد رضى الديان والدين عنكما

من قصيدة عمر بن الخطاب :

فما القوى قوياً رغم عزته ... عند الخصومة و(الفاروق) قاضيها
وما الضيف ضعيفاً بعد حجته ... وإن تخاصم واليها وراعيها
وما وفى ابنك (عبد الله) أينقه ... لما طلعت عليها فى مراعيها
رأيتها فى حماه وهى سارحة ... مثل القصور قد اهتزت أعاليها
فقلت : ما كان (عبد الله) يشبعها ... لو لم يكن ولدى أو كان يرويها
قد استعان بجاهى فى تجارته ... وبات اسم (أبى حفص) ينميها
ردوا النياق لبيت المال إن له ... حق الزيادة فيها قبل شاريها
وهذه خطة لله واضعها ... ردت حقوقا فأغنت مستميحيها
ما الاشتراكية المنشود جانبها ... بين الورى غير مبنى من مبانيها
فإن نكن نحن أهليها ومنبتها ... فإنهم عرفوها قبل أهليها
إن جاع فى شدة قوم شركتهم ... فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفة ـ والدنيا بقبضته ـ ... فى الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى (أبا حفص) وسيرته ... أو من يحاول (للفاروق) تشبيها
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها ... من أين لى ثمن الحلوى فأشريها
لا تمتطى شهوات النفس جامحة ... فكسرة الخبز عن حلواك تجزيها
وهل يفى بيت مال المسلمين بما ... توحى إليك إذا طاوعت موحيها
قالت : لك الله إنى لست أرزؤه ... مالا لحاجة نفس كنت أبغيها
لكن أجنب شيئاً من وظيفتنا ... فى كل يوم على حال أسويها
حتى إذا ما ملكنا ما يكافئها ... شريتها ثم إنى لا أثنيها
قال : اذهبى واعلمى إن كنت جاهلة ... أن القناعة تغنى نفس كاسيها

وأقبلت بعد خمس وهى حاملة ... دريهمات لتقضى من تشهيها
فقال : نبهت منى غافلا فدعى ... هذى الدراهم إذ لا حق لى فيها
ويلى على عمر يرضى بموفية ... على الكفاف وينهى مستزيديها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به ... أولى فقومى لبيت المال رديها
كذاك أخلاقه كانت وما عهدت ... بعد النبوة أخلاق تحاكيها

وقال من قصيدة حريق ميت غمر (أيها الأغنياء) :

سائلوا الليل عنهم والنهارا ... كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم ... وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار ... يتداعى وأسقف تتجارى ؟
رب إن القضاء أنحى عليهم ... فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومر النار أن تكف أذاها ... ومر الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك؟يروى ... هذه النار فهى تشكو الأوارا
أشعلت فحمة الدياجى فباتت ... تملأ الأرض والسماء شرارا
غشيتهم والنحس يجرى يمينا ... ورمتهم والبؤس يجرى يسارا
فأغارت وأوجه القوم بيض ... ثم غارت وقد كستهن قارا
أكلت دورهم فلما استقلت ... لم تغادر صغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عراة ... حذر الموت يطلبون الفرارا
يلبسون الظلام حتى إذا ما ... أقبل الصبح يلبسون النهارا
حلة لا تقيهم البرد والحر ... ولا عنهم ترد الغبارا
أيهذا الرافلون فى حلل الوشى ... يجرون للذيول افتخارا
إن فوق العراء قوما جياعا ... يتوارون ذلة وانكسارا
أيها السجين لا يمنع السجن ... كريماً من أن يقيل العثارا
مر بألف لهم وإن شئت زدها ... وأجرهم كما أجرت النصارى
قد شهدنا بالأمس فى مصر عرساً ... ملأ العين والفؤاد ابتهارا

سال فيه النضار حتى حسبنا   أن ذاك الفناء يجرى نضاراً

بات فيه المنعمون بليل   أخجل الصبح حسنه فتوارى

يكتسون السرور طوراً وطوراً   فى يد الكأس يخلعون الوقارا

وسمعنا فى (ميت غمر) صياحا   ملأ البر ضجة والبحارا

جل من قسم الحظوظ فهذا   يتغنى وذاك يبكى الديارا

رب ليل فى الدهر قد ضم نحساً   وسعوداً وعسرة ويسارا

علي الشرقي

قصيدة غناء الراعي

أسمع الناي إنه يتشكى برنين من وحشة الانقطاع
ودع الروض والبلابل تشدو فغناه ذكرى ليوم الوداع
زاحمت صدره المشرح أسبا ب لرنات صوته ودواع
هل نفخنا من روحنا فيه شجواً فبه مابها من الأوجاع
شاعر خاشع يحس بما في النـ فس من وحشة ومن التياع
رجف الصوت بالحنين وأصغى لرفيف الأرواح في الأسماع
نغمات ريا من الدمع دقت جرس القلب في رنين انصداع
وبترديدها تردد روحي بين خفض مشج وبين ارتفاع
إن للحادثات وقعاً على الأضـ لاع واللحن رنة الأضلاع
واختلاف القرعين صير هذا شدو شاد يشجي وذائعي ناع
نشر السرح عندما إستسلم الليـ ل ورن الصدى وغنى الراعي
عرشوها على الخمائل باهت كوة القصر زاهيات الرباع
ناوحتها الرياح وانعطف النهر عليها وأبهجتها المراعي
نشر البدر فوقها شبك النور فكانت كقبة من شعاع
شامخات القصور فاتك منها عينة اللطف حشمة في اتضاع
سكت النهر موحشاً لاخرير الـ ماء فيه ولا رفيف الشراع
في غبار الضياع كفنت آمالي فأدرجن في غباء الضياع
وعلى الشاطئين من روعة الدهـ ر جلال في قدرة وارتياع
أسفاً بعد ضجة الطير فيه أصبح القطر ضجة للرعاع

ماحياة الفلاح فى كنف الغرا ف إلا موت طويل النزاع

* * *

ياصراع العزيز قد سرقت مصر ولم تفتقد كفقد الصواع
ارتقت عندنا الصناعة حتى كل قول وكل فعل صناعى
ونبغنا فى الإختراع جميعاً فتأمل فى وضعنا الاختراعى
يصدع الرأس فى المهام ولا خير برأس ما فيه غير الصداع
فى مطاوى الإجماع قد يكثر البله فكيف الوثوق بالاجماع
ولد الناس مطلقين ولكن قيدتهم سلاسل الاجتماع
وبنود القماط رمز على التقييد فى العيش منذ دور الرضاع

منجل الفلاح

نظمت عام ١٩٢٥

أتراني بين القرى والضواحي — طفت ظهرا وفي يدي مصباحي
إن تفتش عن ارتياح بلاد — فتفقد شؤونها في النواحي
وإذا ارتاحت البلاد تبدت — في قراها علائم الارتياح
أرهقت شدة المظالم جيلى — فإذا هم جيل من الأشباح
مالهذا الفلاح في الأرض روح — أهو من معشر بلا أرواح
هو في جنة ينال عذاباً — وهو تحت الأشجار أجرد ضاح
وقرى النمل لهف نفسي أثرى — من قراه إلا من الاترياح
إن رغت حول بيته بقرات — جاوبتها كباشه بنطاح
وإذا لم تفده ألواح زرع — فبماذا تفيده ألواحي
سعد إني قد أطرحت يراعي — وتناولت مبضع الجراح
لارعى الله معشراً مدنياً — أفسدوا عيش عامل لصلاح
رب قصر من فوق دجلة كالطاوس — للزهو ناشر بجناح
أتراه مدته دجلة أنفاً — حين فاحت روائح القداح
نصبوه كمنبر من ورود — فالمراقي من سوسن وأقاح
لو كشفنا أطباقه عن أساس — لوجدناه منجل الفلاح
ياضعيفا أرى الولاة عليه — أعرضت عن نصائح النصاح
أرهقته ضرائب باهظات — وديون ثقيلة الأرباح
لم يفده سلاحه فهو ليث — قتلوه صبراً بغير سلاح

لو نفذنا لقلب ذاك المغنى   لوجدناه متخناً بالجراح
خص من نهره ومن شاطئيه   بخسيس المرعى وبالضحضاح
فى مروج من حولها قد تناغت   كل صداحة إلى صداح
ياربوعا حيوانها يتغنى   بسرور وأهلها فى نياح
ومراع سروحها إن تناغت   جاوبتها رعاتها بصياح
كم على أرضها نكت بعودى   وعلى أهلها صفقت براحى
تسعد الشاة فى المراح وراعى   الشاة يلقى شقاءه فى المراح

* * *

الرطاب الفصاح فى القطر خرس   كل عينى على الرطاب الفصاح
أسكتتها سود الليالى اللواتى   مزجت جدها لنا بمزاح
قد قرأنا أنجيل تلك الليالى   وقرنآ الإصحاح بالاصحاح
وإذا الناس كلهم فى مساء   وعدتهم احلامهم بصباح

محمد مهدي الجواهري

الاقطــاع(*)

ألا قوة تسطيع دفع المظالم وإنعاش مخلوق على الذل نائم
ألا أعين تلقي على الشعب هاوياً إلى حمأة الادقاع نظرة راحم
وهل مايرجى المصلحون يرونه مواجهة أم تلك أضغاث حالم
تعالت يدُ الاقطاع حتى تعطلت عن البت في احكامها يد حاكم
وحتى استبدت بالسواد زعانف إلى نفعها تستاقه كالبهائم (١)
إذا رمت أوصافاً تليق بحالة تعرفتها ضاقت بطون المعاجم
ألا نستحي من أن يقال بلادهم عليها من الاذلال ضربة لازم
هي الأرض لم يخصص لها الله مالكا يصرفها مستهتراً في الجرائم
ولم يبغ منها أن يكون نتاجها شقاوة مظلوم ونعمة ظالم
عجبت لخلق في المغارم رازح يقدم ما تجني يداه لغانم (٢)
وأنكأ من هذا التغابن قرحة غباوة مخدوم وفطنة خادم
وكم من خمول لاح في وجه مترف وكم من نبوغ شع في عين عادم (٣)
لو اطلعت عيناك أبصرت مأتماً أقيم على الأحياء قبل المآتم
وإلا فما هذا الشقاء مسيطراً له في جباه القوم مثل المياسم (٤)

(*) نظمت في عام ١٩٣٩

(١) الزعانف : أراذل الناس

(٢) المغارم : جمع مغرم وهو مايتحمله الرجل من خسارة في مال أو دم

(٣) العادم : الفقير المعدم .

(٤) المياسم : جمع ميسم وهي علامة كاوية كان العرب في الجاهلية يضعونها على من يريدون إذلالهم ،

إذا أقبل «الشيخ المطاع» وخلفه من الزارعين الأرض مثل السوائم!

من المزهقي الأرواح يصلي وجوههم

مهب أعاصير ولفح سمائم

قياماً على أعتابه يمطرونها خنوعاً وذلا بالشفاه اللوائم

رأيت مثالا ثم لابن ملائك تنزل من عليائه وابن آدم!

حنايا من الأكواخ تلقى ظلالها على مثل جب باهت النور قاتم

تلوت سياط فوق ظهر مكرم من اللؤم مأخوذ بسوط الألائم

وباتت بطون ساغبات على طوى وأتخمت الأخرى بطيب المطاعم

أهذي رعايا أمة قد تهيأت لتستقبل الدنيا بعزم المهاجم؟!

أهذا سواد يبتغى لملمة ونحتاجه فى المأزق المتلاحم

أهذي النفوس الخاويات ضراعة نباهي بها الأقران يوم التصادم؟

أمن ساعد رخو هزيل وكاهل عجوز نريد الملك ثبت الدعائم!

من الظلم أنا نطلب العزم صادقاً

من الشعب منقوض القوى والعزائم (١)

وأن ننشد الاخلاص فى تضحياته ونحن تركناه ضحية غاشم

وأن نبتغي ركضاً حثيثاً لغاية نحاولها من راسف فى أداهم (٢)

لنا حاجة عند السواد عظيمة سنفقدها يوم اشتداد الملاحم

هنالك لاتجدى فتيلا عصابة إذا جد خطب فهى أول راجم

وأن سواداً يحمل الجور مكرهاً فقير لهاد بين النصح حازم

يشن على الاقطاع حرباً مبيدة ولا يختشى فى الحق لومة لائم

يمد يداً تعطى الضعاف حقوقهم ويسطو بأخرى باطشا غير راحم

ويجتث اقطاعاً أقرت جذوره سياسة تفريق وحوز مغانم

سياسة إفقار وتجويع أمة وتسليط أفراد جناة غواشم

---

(١) منقوض القوى أى منحلها ومنهدها

(٢) الأداهم القيود التى توضع فى أرجل المسجونين .

لقد قلت لو أصغى إلى القول سامع ... وما هو منى بالظنون الرواجم
ألا إن وضعاً لا يكون رفاهه ... مشاعاً على أفراده غير دائم
أمبتردات بالخمور تثلجت ... وبالماء يغلى بالعطور الفواغم
ومفترشات فضلة فى زرائب ... يوسدها ما حولها من ركائم(١)
أمن كدح آلاف تفيض تعاسة ... يمتع فرد بالنعيم الملازم
وما نا آ بالهياب ثورة طامع ... ولكن جماع الأمر ثورة ناقم
فما الجوع بالأمر اليسير احتماله ... ولا الظلم بالمرعى الهنيء لطاعم
نذيرك من خلق أطيل امتهانه ... وإن بات فى شكل الضعيف المسالم
بلاد تردت فى مهاو سحيقة ... وناءت بأحمال ثقال قواصم
تبيت على وعد قريب بفتنة ... وتضحى على قرن من الشر ناجم
ولو عولج الاقطاع حم شفاؤها ... ومن لى بطب بين الحذق حاسم
ولم أر فيما ندعى من حضارة ... وما يعترى أوضاعنا من تلاؤم
وها إن هذا الشعب يطوى جناحه ... على خطر من ثورة اليأس داهم
غداً يستفيق الحالمون إذا مشت ... رواعد من غضباته كالزمازم(٢)

---

(١) الزرائب : جمع زريبة وهى حظيرة المواشى :

(٢) الزمازم : جمع زمزمة وهي ضجيج الرعد وزئير الأسد ، أو طقطقة النيران .

محمود الحبوبي

اليتيم

سئم العيش لم يذق غير صابه — ناشىء كاد أن يذوب لما به

ناشىء زهد البرية فيـــه — أنه في الوجود من أذنابه

أيها الشاعرون من لصبي — راعه بجأة نوى أحبابه

لم يشيع أباه للقبر حتى — شيع الأم ، ياالهول مصابه

جدث ضم أمه ، وأباه ، — ودلو أنه انطوى فى ترابه

جهل الانتحار طفلا غريرا — او دراه ماخاف سوء ارتكابه

اهزلت جسمه الصغير المآسى — لم يطق حملها رقيق إهابه

لفظته الحياة غضى عليه — ـ كذويها ـ أعظم بطول عذابه

إن يخاطب فى الناس هذا وهذا — لم يجد غير ناهر ، ومجابه

فزوى عنهم اللسان ولكن — ظل فى عينه بليغ خطابه

غمر الخوف نفسه فهو يلقى — كل شيء مكشراً عن نابه

وهو بين المواطنين غريب — يتشكى ـ كاليتيم ـ طول اغترابه

ليس يدرون مابدا أصبى — أم خيال يلوح تحت ثيابه

تتغاضى عنه العيون ازوراراً — وتكف الأكف عن آرابه

صبغ السقم وجهه باصفرار

والطوى ، والسهاد ، أو مايشابه

لم تمت عبقرية فيـــه لو لم — يحرم الوادي الفضا من سحابه

يبصر النشء حوله كالفراشات إزدهاء فينثني لاكتئابه

إذ يرى نضرة السرور عليهم ويراها مفتومة باجتنابه

ويراهم يلهون فى كنف الأهل فتندى الدموع من أهدابه

ويراهم ينأون عنه فيخشى من تدانيه نحوهم واقترابه

ويرى ذاته تخالف نشئاً دأبهم فى حياتهم غير دابه

لم يجد مثلهم على الناس زهوا لا بأمواله — ولا أنسابه

ماله من شؤونهم غير ما لله مره فى الفقر من خداع سرابه

هدمته الخطوب جسماً وروحاً مثلما يهدم النهي بارتيابه

...

كلما شاهد المقاصير ملأى بالنعيم الرقراق ، أو أسبابه

لم يشاهد فى الكوخ يأوى إليه غير إقفاره ، وغير خرابه

خاشع تحت رهبة الليل فيه هل رأيت « المسيح » فى محرابه

تتراءى الأشباح فيه فتمشى عاصفات الأهوال فى أعصابه

كل شىء يراه يفزع منه فزع الجدى من نيوب ذئابه

إذ يخال الدجى وجوه سعالى يتوارى عنهن فى جلبابه

ونجوم السما عيون بذاة سوف تنقض من عل لانتهابه

وحفيف الأشجار همس لصوص وقفوا من عريشه خلف بابه

هكذا عاش فى مجاهل هذا الكون رهن اكتئابه واضطرابه

يطلب المنقذ المغيث فيثنى عزمه اليأس خائباً من طلابه

ليس تصغى السما له ، لا ولا الأرض

فتنجيه من يدى أوصابه

ذاهل كالذى يساق إلى الموت برئياً فى عنفوان شبابه

أو كربان زورق فى خضم حطمته الأمواج وسط عبابه

كيف غابت مأساة اشباهه عن شعراء الوجدان ، أو كتابه
إنه لم يعش كما هو إلا مذ تغابي عنه الشعور النابه
أين فضل الأديب فى الشعب إن لم
يسعد الأشقياء فى آدابه

° ° °

كفكفي يا يد المبرات وإلا حان دمع اليتيم يبكى لما به
كفكفيه لذاته ، أو لذات الله يوم الجزاء — أو لثوابه
كفكفيه وقد دعاك الضمير الحى فلتسرعى لرد جوابه
ياضنينا على الفقير بمال هو من جهده ومن أتعابه
لست بالمال فى الحياة سعيداً بل ببر اليتيم ، أو أترابه
أى فضل لذى ثراء نراه بشكايا أخوانه غير آبه
رب مال يضيعه الدهر تواً وثناء يبقى مدى أحقابه

إلى الأغنياء

أيها المثقلُ الخوان طعاماً راق للعين منظرا ونظاماً
حوله صفت الفواكه أنوا عاً ، وقد فاضت الكؤوس مداما
كل هنيئا واشرب هنيئا ، ولا تعـ بأ بمن قال : قد فعلت حراماً
أو بمن قال - بعد ما طبت عيشاً غمر الصحب صفوه والندامى -
أيطيب الطعام أكلا ، وتهنا الـ خمر شرباً على أنين الأيامى ؟
أم يلذ الأفطار من قوت قوم قد طووا يومهم إليك صياما ؟
لا تصخ مسمعاً لنصح كهذا واهن واترك للبائسين الرغاما

. . .

لا تفكر بأن حولك ناساً يتمنون أن يمصوا العظاما
لا تفكر بهم ، وهبهم صخوراً لا تحس الأوجاع والآلاما
لا تفكر بغير لهو ، ودعهم يلعنون الزمـــان والأياما
لا تفكر بأن خمرتك الصهـ باء جادت بها دموع اليتامى
لا تفكر بأن قصرك لولا هم لما شيد واستطال دعاما
لا تفكر بما يكدر صفو الـ عيش ، أو ما يهول الأحلاما
لا تفكر، وضح بالشعب، واشرب دمه - إن ظمئت - جاماً فجاما

. . .

كن كما شاءت النواميس ذئباً فاتكا بالضعاف أو ضرغاما
ولتجد أنة التقيم بأذنيك غناء ؛ ونوحه أنغاما
وانتزع من فؤادك العطف والرحـ مة ، وازدد شراسة وانتقاما
وأقم في الدهر أيديا تنهب الأمـ وال ، وانشط لمغنم اقداما

واختزن ما استطعت قوت المسا   كين ، ولاتخش أن جنيت أثاما
وتصام إذا سمعت عويلا   لجياع يستعطفون الأناما
وإذا سلموا عليك فأعرض   كبرياء ، ولا ترد السلاما
وإذا خاطبوك فاسكت، وقطب   كلما منهم لمحت ابتساما
أو ألحوا فابطش بهم ،وليسموا   البطش ظلماً ، وسمه إقداما
وترفع عنهم ، ألست تراهم   لك يا سيد الورى خداما ؟
وتفنن ظلماً وجورا ، ولاتخ   ش عتاباً من غيرهم أو ملاما
من هم فى الوجود حتى يلاقوا   منك ، أو من لداتك الاكراما
إنما أنت فوقهم أيها المو   سر مجداً ، ورفعة ، ومقاما
أنت ممن عاشوا سراة ، وهم ممن   يعيشون فى الحياة عظاما

• • •

وإذا ما شعرت يوماً بعطف   نحوهم فأنف هذه الأوهاما
وإذا ما استطعت وجه إليهم   بدل المال من يديك سهاما
وعلى مثل ما فعلت فدرب   آلك الغر ، أو ذريك الكراما
واجتهد أن ترى الفتاة تضاهى   أختها ، والغلام يحكى الغلاما
وليكن فارغاً — كقلبك — هذا   القصر عطفاً ، ورحمة وسلاما
وإذا ماعذلت قل : أيكم يا   قوم بالبائسين يبدى اهتماما
إننا — الأغنياء — لم نر هذا   الخلق لخلق إلا كما رأينا السواما
نمنع الخير أهله ، لانبالى   أن نسمى أشحة أو لئاما

أحمد الصافي النجفي

الفـــلاح

رفقاً بنفسك أيها الفلاح ... تسعى وسعيك ليس فيه فلاح

لك في الصباح على عنائك غدوة ... وعلى الطوى لك في المساء رواح

هذي الجراح براحتيك عميقة ... ونظيرها لك في الفؤاد جراح

في الليل بيتك مثل دهرك مظلم ... ما فيه لا شمع ولا مصباح

فيخر سقفك إن همت عين السما ... ويطير كوخك إذ تهب رياح

حتى الحمام عليك رق بدوحه ... فله بحقـــلك رنة ونواح

هذي ديونك لم يسدد بعضها ... عجزاً فكيف تسدد الأرباح

بغضون وجهك للمشقة أسطر ... وعلى جبينك للشقا ألواح

عرق الحياة يسيل منك لآلئاً ... فيزان منها للغنى وشاح

أتصد جيش الطامعين ولم يكن ... لك في الدفاع سوى الصياح سلاح

قد كان يجديك الصياح لديهم ... لو فجر الصخر الأصم صياح

يتنازعون على امتلاكك بينهم ... فلهم عليك تشاجر وكفاح

كم دارت الأقداح بينهم ولم ... تملأ بغير دموعك الأقداح

حسب الولاة الحاكمون على القرى ... أن ثم أجساد ولا أرواح

كيف التفاهم بين ذينك ، نائح ... يشكو العذاب وسامع مرتاح

قد أنكروا البؤس الذي بك محدق ... أفينكرون الحق وهو صراح

عجباً أينكر بؤس سكان القرى ... إلا وجوه كالصفيح وقاح

يا غارس الشجر المؤمل نفعه ... دعه فإن ثماره الأتراح

اقلعه فالثمر اللذيذ محرم ... للغارسين وللقوى . مباح

أصبحت ثورتك الحقول أسى فما   يهتاج أنسك نشرها الفياح

ترتاع من مرأى النخيل كأنما   سعف النخيل أسنة وصفاح

ياواهب الخير الجزيل لشعبه   أكذا يجازى بالعقاب سماح

أفنت حقولك آفة أرضية   عاثت بها وشعارها الإصلاح

طير السعادة طار عنك محلقا   وعلى ولاتك رف منه جناح

قد أقسم البؤس الذى بك نازل   أن لا تمر بدارك الأفراح

تقضى حياتك بالعناء ولم تكن   فى غير أيام السقام تراح

سر بيؤسك فاضح لذوى الغنى   او أن سرك فى البلاد يباح

حتى م يا هذا لسانك ألكن   وإلى م ألسنة الطغاة فصاح

كل الجناح على الضعيف إذا اعتدى   أما القوى فما عليه جناح

ياريف إن كتاب بؤسك مشكل   يعيا بحل رموزه الشراح

أطيار روضك غالها باز العدى   وعدا على أسماكك التمساح

الورد قد خنقة أشواك الربى   ظلماً وفر البلبل الصداح

ياريف مالك شرب أهلك آجن   رنق وشرب ولاة أمرك راح

أحمد شوقي

أيها العمال

أيها العمال أفنوا	العمر كدا واكتسابا
واعمروا الأرض فلولا	سعيكم أمست يبابا
إن لى نصحاً إليكم	إن أذنتم وعتابا
فى زمان غبي النا	صح فيه أو تغابى
أين أنتم من جدود	خلدوا هذا الترابا
قلدوه الأثر المعجز	والفن العجابا
وكسوه أبد الدهر	من الفخر ثيابا
أتقنوا الصنعة حتى	أخذوا الخلد اغتصابا
إن للمتقن عند الله	والناس ثوابا
أتقنوا يحببكم الله	ويرفعكم جنابا
أرضيتم أن ترى مصر	من الفن خرابا ؟
بعد ما كانت سماء	للصناعات وغابا
أيها الجمع لقد صر	ت من المجلس قابا
إن لغينا للقوم	ليس تألوك ارتقابا
فتوقع أن يقولوا	من عن العمال نابا
ليس بالأمر جديراً	كل من ألقى خطابا
أو سخا بالمال أو	قدم جاها وانتسابا
أو رأى أمية فا	ختلب الجهل اختلابا
فتخير كل من شب	على الصدق وشابا
واذكر الأنصار بالأ	مس ولا تنس الصحابا

أيها الغادون كالنحل ارتيـادا وطـلابا
فى بكور الطير للرزق مجيئاً وذهـابا
أطلبوا الحق برفق واجعلوا الواجب دابا
واستقيموا يفتح الله لـكم باباً فبابا
واهجروا الخمر تطيعوا الله أو ترضوا الـكتابا
إنها رجس فطوبى لأمرىء كف وتابا
ترعش الأيدى ومن يرعش من الصناع خابا
إنما العاقل من يجعل للدهر حسـابا
فاذكروا يوم مشيب فيه تبكون الشبابا
إن للسن لهما حين تعلو وعـذابا
فاجعلوا من مالكم للشيب والضعف نصابا
واذكروا فى الصحة الداء إذا ما السقم نابا
واجمعوا المال ليوم فيه تلقون اعتصابا
قد دعاكم ذنب الهيئة داع فأصابا
هى طاووس وهل أحسنه إلا الذنابا

عباس العقاد

« دار العمال »

نظمت سنة ١٩٣٥

حى دار العمال بالإقبال ... وترقب لها بلوغ الكمال
وانتظر رافعى الدعائم حتى ... يرفعوا بيتهم عزيز المثال
رفعوا أمس ما علا من صروح ... ولهم فى غد صروح عوالى
ولهم فى غد من الأمر قسط ... من يكن مؤمناً به لا يغالى
أيها العاملون لبيكم اليو ... م ، ولبيكم غداً فى المجال
نعم جيش السلام أنتم إذا ما ... جرد البغى جيشه لاغتيال
لكم العدة التى ما استطاعت ... أمة قط تركها فى نزال
ولكم أذرع شداد ، وأيد ... من حديد ، وأظهر من جبال
ولكم فى اتحادكم رأس مال ... إن فقدتم ذخائر الأموال
ولكم صيحة يهاب صداها ... سادة فى نفوسهم كالموالى
فابلغوا بالوئام والصبر مالا ... يبلغ المرجفون بالأهوال
لا يسخركم المسخر جهلا ... وانبذوا كل عاطل مكسال
حبذا الناس يعكفون على الأعمال ... حتى ذوى الغنى والملال

...

لا يكن من بنى الكنانة باغ ... يملأ الناس دوره وهو خال
ويكيل النضار وهو دماء ... جمعت من مصارع الآجال
كيف ترعى عناية الله أرضاً ... باء فيها المجد بالإقلال ؟

يأسج الخز الحرير ويمشى حافياً فى الرقاع والأسمال
ويشيد القصور وهو شريد فى زوايا الكهوف والأطلال
ويدر الغنى وما فى يديه شبعة الوالدين والأطفال
يهب المترفين عمر فراغ وهو باكى الأيام باكى الليالى
ذاك ظلم نعيذ بالله مصراً من أذاه فى مقبل الأجيال

. . .

أيها المنقذون بنية مصر من فتور ومن ضنى أو كلال
أنتم الكف والذراع وأنتم قوة فى يمينها والشمال
حظكم حظها من العلم والصحة والبأس والحجا والخصال
كلما نالها نصيب من الخير فأنتم لكم نصيب تالى
أعجب الناس عامل فى بلاد صاح فيها : ما للبلاد ومالى
لا تقولوا العمال حسب وأنتم فى بلاد تموج بالعمال
إن مصرا تنال من غاصبيها أجر بخس وخدعة ومطال
وهى أرض للواغلين عليها سطوة أشعبية الإيغال
كل من فى جوانب النيل عان مستغل الجهود والآمال
كلهم غارس لآخر يجنى ثمر الماء والثرى والرجال
وإذا ما تفرقوا طبقات جمعتهم جوامع الأغلال
وإذا قيل موسر وفقير فقصاراهما إلى استغلال
حققوا الأمر ما قضيه مصر بعد إلا قضية العمال
فاعملوا جهدكم لمصر جميعاً واتبعوا خطة الهدى لا الضلال
ما لكم منصف ولا لبنيها منصف قبل يوم الاستقلال

الاشـــتراكية(۱)

إن ما تراه من الاشتراكية فى الغرب ، وما تتوخاه من المنافع بذلك المذهب ، فى شكله الحاضر ، وأسسه ، وتخبط واضعى مبادئه ، كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية ، ويجعلها محض ضرر بعد أن كان المنتظر منها كل نفع .

الاشتراكية الغربية ، ما أحدثها وأوجدها إلا حاسة « الانتقام » من جور الحكام والأحكام ، وعوامل الحسد فى العمال من أرباب الثراء ، الذين إنما أثروا من وراء كدهم وعملهم ، وادخروا كنوزهم فى الخزائن ، واستعملوا ثروتهم فى السفه ، وبذلوها فى السرف والتبذير والترف ، على مرآى من منتجها ، والفاعل العامل فى استخراجها من بطون الأرض ومن ترابها ... إلخ .

وبالاختصار ثمرات عمل العمال بكل أنواع حاجة العمران .

فكل عمـــل يكون مرتكزا على الإفراط لا بد أن تكون نتيجته التفريط . أفرط الغربيون (الأغنياء) بنبذ حقوق العمال والفقراء وراء ظهورهم ، فأفرط العمال بمناهضة أهل الثروة وغاصبى حقوق الأمة ، بالمناصب ومسببات الجاه ، فلا قاعدة دينية يرجع إليها ، ولا سلطاناً وازعاً يعمل بقهر لصالح المجموع ، لذلك أصبح أمرهم فى الاشتراكية فوضى ، ولسوف ينعكس أمرها .

---

(۱) خاطرات الأفغانى .

أما الاشتراكية فى الإسلام ، فهى ملتحمة مع الدين الإسلامى ، ملتصقة فى خلق أهله . منذ كانوا أهل بداوة وجاهلية .

أول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة ، وأعظم المحرضين على العمل بالاشتراكية كذلك من أكابر الصحابة أيضا ، وإليك البيان :

أما أن الاشتراكية من خلق البداوة ، فالبرهان عليه ما كان من أهل الثراء منهم ، ومواساته لأهل قبيلته وعشيرته ، ولا أعد كثيراً من ذلك ، بل اجتزىء بمن اشتهر منهم مثل : حاتم الطائى ، فى السنين المجدبة ، وكيف أنه نحر أعز ما لديه (وهو فرسه) ، ذلك لمجرد مجىء امرأة من أقصى قبيلة طىء ، إذ قالت له : ياحاتم قيل لنا أن عندك لحماً عبيطا فأتيت بصبيتى فقال: صدقت ، ثم نحر فرسه وأشعل ناره (تلك العلامة التى كانت كدعوة للجموع يعلمون منها أن هناك طعاماً) فيأتون لمكان الدخان فى النهار وأشعلة النار ليلا ، ويشتركون جميعهم فى المأكل دون أدنى منة لصاحبها ، لأن الأمر بينهم مناوبة يفعله الميسور والمثرى ، كل على نسبته وما لديه من سعة .

هكذا فعل حاتم مع من قصدته وأطفالها ، ومن رأى النار ويمم نحوها من أهل جواره وقبيله . وقد تواتر الخبر بأن حاتما لم يذق من ذلك اللحم شيئاً ، مع كونه قرماً سغباً .

وهناك رجل آخر من رجال العرب ، وهو « طلحة الطلحات » كان شأنه ، أن كل أعزل معدم يأتيه يقول له : « دونك الفرس والرمح والسيف فعسى أن تكتفى بها ذل السؤال ، وأن لم تفعل ولم تحسن العمل بها ، فلا أرشدك الله ولا أغناك .

يقال أن ذلك الرجل « طلحة » المثرى بالخيل والسلاح ، جهز على المنوال المذكور ألف فارس ، ولم يبق عندهم إلا ما أعطى لواحد منهم .

فكان كل فارس من جهزهم طلحة إذا أتاه غلام سماه طلحةً فلم يمض كثير من الزمن إلا وكان فى تلك القبائل أبناء أولئك الآباء مئات من ذلك الإسم فسمى « طلحة الطلحات » .

هذا مثل من الاشتراكية قبل الإسلام ، ومنه يعلم أن الثروة كانت ولا تزال موجودة فى الأفراد ، ولكن حسن إستعمالها ، جعل الاشتراكية أمراً مقبولا ، وصفة ممدوحة ، إذ لا أنانية ولا أثره ، ولا استطالة على الفقير بخيول مطهمة يستأثر بها ، ولا بطعام شهى يلتذ به مع لفيفة ، ولا ببناء شاهق يسكن فيه ، بينما موجد ومسبب ومهيء تلك النعم كلها ، ذلك العامل الفقير الذى يسكن كوخاً حقيراً ، نصف أعضائه وأبنائه فى خارجه ، عرضة لصبارة القر وأوارة الحر ، لا يملك من القوت خبزاً كافياً ، ولا من الملبس ما يستر به تمام العورة .

هذا ما عليه اليوم أهل الثروة ، وهذا ما استنفر طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية وفى نفيرهم روح الانتقام والإفراط فى المطالبة بحقهم، يقابله التفريط فى زجرهم ، وعدم الرضوخ لما يطلبونه من الحق ، ولسوف يتفاقم الخطب ، وتعم من جراء ذلك البلوى فى الغرب ولا يسلم منها الشرق .

أما الاشتراكية فى الإسلام ، فهى خير كافل لجعلها نافعة مفيده ، ممكناً الأخذ بها لأن الكتاب الدينى ، وهو القران أشار إليها بأدلة كثيرة ، منها أن المسلم أول ما يقرأ فاتحة الكتاب (الحمد لله رب العالمين) فيعلم أن للخلق رباً واحداً ، وهو مع سائر الخلق من المربوبين على السواء .

ويرى ، ويعلم أن القرآن أتى على ذكر أرباب القوة ورجال الحرب والغزاة ، ومن يتولى أمرتهم وقيادتهم ، فخاطبهم آمراً ومعلماً ومدافعاً ، ومبيناً حقوق المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من الأشتراك مع من ذكر ليكون لهم من ذلك الجهاد وتلك المساعى نصيب ، إذ قال (واعلموا

إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، إن كنتم امنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير) .

هذه آية باهرة ، أوجبت على من يسعى مجاهداً ، ومخاطراً بحياته أن يكون مشتركا معه بنتيجة غزواته وغنائمه . من لم يكن مشتركا فعلا ، فأعطى أولا لله تعالى، نصيباً ،ومرجع ذلك النصيب لعباده،ثانياً « للرسول ». ثالثاً لذوى القربى » ، وهم لا شك من المستضعفين الذين إما قعدوا عن الاشتراك فى الجهاد ، والسعى وراء الغنائم ، لعلل تختلف أشكالها وأنواعها ، ولكن الدين لم يجز حرمانهم بل جعل لهم نصيباً من مساعى أولئك الأشداء الأقوياء المجاهدين ، الخائضين غمرات الموت . . . الخ » .

كل ذلك نراه مبنياً على حكمة الاشتراك ، ولبث حكم هذه الآية جارياً ، وكان الرضاء به شاملا لمجموع المسلمين ، من مجاهد أو قاعد عن الجهاد لعلة ، فبدأ بالدرجة الأولى بعد الله ورسوله بذوى القربى من المجاهدين على درجاتهم (ممن ينظر بحاجات أولاد المجاهدين وعيلتهم عند تغيبهم) وعطف على من دونهم فى المرتبة الثانية ممن ليس لهم فى المجاهدين أقرباء ، فقال « واليتامى » ثم وسع نطاق الاشتراكية فقال « والمساكين » ، ثم رأى أن يأخذ نطاقاً أوسع فقال : « وابن السبيل » ، أى عابر ، فتم بهذا الشكل نوع من الاشتراكية لم يكن أوسع منه شكلا ، ولا أنفع .

ثم جاء بموضع آخر من الكتاب ، مقرعاً لمن يكنزون الذهب والفضة ثم حبذ وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والاسعاف والاطعام ولو كان بهم خصاصة .

وهكذا ترى قانون الاشتراكية المعقول فى أيات القرآن تترى . فلننظر هل عمل بهذا القانون ؟؟ وما كانت نتائج العمل به ؟؟

نعم . . إن الأخاء الذى عقده المصطفى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، لهو أشرف عمل تجلى به قبول الاشتراكية قولا وعملا . فالمهاجر من المسلمين إنما استطاع أن يفر بدينه راضياً بهجره بلده ، وترك مسقط رأسه ، ومفارقة أهله وذويه ، والخروج من ماله ومقتناه، مسروراً أن يصل لدار الهجرة سالماً .

والانصارى وهو فى بلده مع آله وذويه وماله ، قبل راضياً مسروراً أن يشارك أخاه المهاجر بكل معنى الاشتراك . حتى لو تطلع الانسان منا اليوم ، وأشرف على تلك الأرواح الطاهرة ، لرأى فى مجالى الاشتراك ، روحاً وجسداً ، ماينبهر له عقله، ولصح اعتقاده أن عمل الدين وتأثيره فى تلطيف الكثافة الجسمانية ، لايضارعه مؤثر وعامل أخر على البشرية ، ولرجعوا إليه لو كانوا يعقلون .

* * *

لما كان مذهب الاشتراكية ، كبقية المذاهب والمبادىء ، لهما طرفان وخير الأمور أوساطها رأى الشارع الأعظم أن تنعم فريق من قوم وشقاء الفريق الآخر، فى محيط واحد ، وبمساع ليس بينها وبين مساعى الآخرين كبير تفاوت ، مما لايتم به نظام الاجتماع ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم (بالمؤمنين رحيما) ، فجاءه عن طريق الوحى ، — وهو نتيجة تمحيص نزغات النفس البشرية ، ماعسى أن ينجم من المضار أو المنافع لها — فوضع للدين أركاناً خمسة ، ومن تلك الأركان « فرض الزكاة » فى المال والأنعام . . الخ.

ثم أضاف إليها كما سبق ، « غنائم الحروب » فأخذ منها قسطاً بمقدار الخمس، ثم بعد ذلك حرض على بذل « الصدقات » وحرم « الربا » بنكتة غاية فى الحكمة ، وهي أن لايؤكل الربى أضعافا مضاعفة ، وهو ماوقع عليه

التحريم . ولكى يكون للإمام مخرج إذا قضت المصلحة بالتسامح للحكم بجواز الربا المعقول ، الذى لا يثقل كاهل المديون ولا يتجاوز فى برهة من الزمن رأس المال ، ويصير أضعافا مضاعفة ، وفرق صراحة بين احتيال المرابين المتلبسين بالدين ، الذين يتظاهرون بالتجنب عن الربا ، ببيعهم سلعة قيمتها الحقيقية مائة درهم ، يجرون عقد بيعها مع المشترى المضطر بثلاثمائة درهم ، وحقيقة هذ الفرق إن هو إلا نصيب الربا وعينه ، وإنما يجعلونه عن طريق البيع ، ويخدعون أنفسهم بأنهم تخلصوا من ارتكاب جريمة الربا التى حظرها عليهم الدين .

وإليك بعض ماجاء بهذا الشأن بالقرآن (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم) وقال (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون) .

أما ماجاء فى الحث على الصدقات فكثير ، كقوله تعالى (إن تبدوا الصدقات فنعما هى ، وأن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير) .

وقال (إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله ، وابن السبيل ، فريضة من الله) . وقال (إن الحسنات يذهبن السيئات) ، وأمثال ذلك كثير فى الكتاب والحديث ، حثاً وتحريضاً على البذل ، ومواساة الفقراء وأهل العوز ، درءاً لمفاسد أرباب المطامع ، وسداً لعوامل حسد الحساد لأهل الثروة والنعيم . . الخ » .

أما الثروة فتختلف بكميتها من ماية إلى ألوف ، وملايين من الدنانير ، ولكن لا تختلف بكيفيتها ، بمعنى أن رجلا يملك ماية دينار بين قوم لا يملك أفرادهم إلا دراهم معدودات ، فيمكن لصاحب تلك المائة أن يظهر بمظهر الثراء ، ويأخذ من التنعم حظاً نسبياً ، ويلفت أنظار قومه ويدعوهم لحسده هذا إذا تمادى بالإثرة والأنانية ولم ينل قومه منه رشاسة فضل ، على حد قول زهير بن أبي سلمى :

ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله　　على قومه يستغن عنه ويذمم

وقد قلنا عن زمن الجاهلية وعصر البداوة مافيه الكفاية ، ومختصره أن أعظم مشركان يتساوى فى مسكنه ومأكله وملبسه مع أفراد قبيله وعشيره ، فلا تتحدث نفس ذلك المجموع بأدنى حاسة من الحسد ، أو داع إلى الانتقام .

ثم جاء الاسلام ، فكان أكبرهم منصباً ، وهو الخليفة لرسول الله يعمل بسيرة نبيه من الاكتفاء بالقليل من العيش ، الكفاف منه ، ومجالسة الفقراء ، ومشاركتهم بكل معنى الاشتراك فى مظاهر الحياة الدنيا ونعيمها . لقائل أن يقول أن شظف العيش فى زمن النبي المصطفى وخلفائه كان يدعو بطبيعة الأمر إلى عدم التحاسد .

فنقول أن الفتح الاسلامى فى زمن أبى بكر الصديق بلغ من الملك مبلغاً عظيما ، وجاء بالمغانم الكثيرة ، ومع ذلك لانرى أن وضعية الخليفة أبى بكر قد تغيرت ، ولا مظاهر وزرائه وقواده تبدلت ، ولا حاسد ، أو يجعل فى نفوس غيرهم أقل عضة .

ولا ريب أن الفتوحات فى زمن الفاروق عمر بن الخطاب قد امتدت فصارت أوسع نطاقاً ، والمغانم أعظم وفرا ، والنفوس البشرية مع هذه العوامل قل ماتنجو من تطلع للسرف والترف ومهيئات الاستطالة والأنانية

(وقد توفرت أسبابها) وبالفعل ورغماً عن قرب العهد بسيرة الشارع وخليفه أبى بكر ، وتمسك الفاروق بسيرتيهما ، فقد أتته الأنباء الصادقة ممن بثه لمراقبة سير ، وسيرة عماله بأنه قد فشت لعامل مصر « عمرو بن العاص » وعامله فى دمشق « معاوية بن أبى سفيان » وغيرهما من العمال فى العراق وغيره ، هيئة بذخ وسرف وثراء ، فخشى معه حصول ميزة الأكاسرة لأولئك الأفراد من العمال ، الخادمين للمجموع ، ويصرفون سلطان الحكم ، ونفوذه بغير وجوه الحق ، فتدب النفرة على سبيل التدريج إلى نفوس الأمة من حكامها ، وبالأخير تنقبض تلك النفوس عن الطاعة الاختيارية ، وتفقد الثقة ويضعف الايمان ، ويتزلزل البنيان ، ويعم البلاء (والعياذ بالله) .

فأسرع الفاروق لملاقاة ذلك الخلل بتقريع عماله بأخشن الأقوال ، عظة وتحذيراً ، وقتلا للغرور ، فخاطب عامله فى مصر بقوله : « إلى العاصى بن العاص . ما أقطعتك مصر طعمة لك ولقومك . . . » وبمثل قوله له : « لا تبالى أن تحيا أنت ومن معك ، أن أموت أنا ومن معى . . » وبمثل قوله : « متى كان بن العاص فى مثل مابلغنى عنه من ثراء ودور وقصور . . الخ . . . »

وهكذا خاطب عامله فى الشام معاوية بن أبى سفيان ، وهدده بأن يتجنب غطرسة هرقل ، وتعاظم الأكاسرة والقياصرة .

ولم يكتف بما قاله ، بل أرسل معتمدا وبيده أمرا مبرما أن يشاطر كل عامل بمقتناه ، من ثروة ومتاع ، حتى أن ذلك المعتمد أخذ فردة نعل العامل وترك له الأخرى .

هذا درس عملى وعلنى للملأ المسلمين ، أفهم فيه الفاروق الحاكم والمحكوم عدم سواغية الأثرة والاستطالة ، وعمل بذلك على محل دواعى الحسد من الصدور فعلا .

فلننظر ماذا فعل عمر بن الخطاب بما صادره من أموال العمال ؟ وماذا صنع

بمغانم كسرى وقيصر ؟ وماذا ظهر على ذلك الخليفة من اثار عظمة الملوك والأمراء ، سواء فى مسكنه أو ملبسه أو مأكله ؟ ؟

ضهر عليه، مع كل ما يتوفر لديه ، ان لباسه كان أحقر ما يلبسه الفقير فى الأمة (ومرقعيته مشهورة فى تواريخ الأمم ، وان فيها مع رقع الأقمشة رقعة من أدم ، أى من جلد) .

وأما مسكنه ، فكان يقضى سحابة يومه فى سقيفة حقيرة يدخل إليها مطاطىء الرأس ، ينظر فى شئون الخلافة ، ويقضى وقت استراحته فى البقيع « جبانة الأموات » .

وأما مطعمه ، فكان خبز الشعير الغالب عليه ، بينما كان يطعم الأيتام والأرامل والمستضعفين من المهاجرين والإنصار ، خبز البر والسمن، والتمر، وينيلهم كل ما كان مناله عزيزاً إلا لأهل الثراء إذ ذاك .

هكذا كان يشاركهم مع نعيم الأغنياء ولا يشترك معهم فيه ، فضلا عن بذل المال للمحتاجين ، وفروض القروض لهم من بيت المال ، وإعطاء الجوائز لمن كان له أو لآبائه سابقة فى الإسلام ، بعشرات الألوف ومیئات الألوف ، كل على حسبه .

فأهل الإسلام . مع تمخض سلطان الحرية فيهم ، لم يروا فى سيرتى الصديق والفاروق رضى الله عنهما ، ما يدعوهم إلى أقل تذمر ، أو تململ ، أو تفكر بمناهضة لسلطانهما ، أو تألب على قلب أشكال حكمهما وأمرتهما، أو إحداث شغب يعرقل مساعيهما فى الفتوحات ، بل كانوا يبذلون النفس والنفيس فى طاعة الخلفاء تأييداً لشوكة الاسلام وتعميا لعدل الشريعة السمحاء .

هذا كان موقف الخلفاء ، وحال الأمة معهم ، ولذلك تجلى العدل المطلق فى الأحكام ، والتزم الحكام التقيد به قولا وعملا .

وهكذا مضى زمن خلافة الفاروق ، وجاء زمن خلافة عثمان بن عفان،

وفى خلالها ظهرت خاصة للامويين، تذمر منها الهاشميون وأكثر القرشيين، وفى مقدمتهم أبناء الصديق والفاروق ، ومن كان على وأيهم . . . إلخ . .

فى زمن قصير من خلافة عثمان ، تغيرت الحالة الروحية فى الأمة تغيراً محسوساً ، وأشد ما كان منها ظهوراً ، فى سيرته وسير العمال والأمراء وذوى القربى من الحقيقة ، وأرباب الثروة ، بصورة صار يمكن معها الحس بوجود طبقة تدعى «أمراء» وطبقة «إشراف» وأخرى «أهل ثروة وثراء وبذخ» ، وانفصل عن تلك الطبقات ، طبقة العمال وأبناء المجاهدين ، ومن كان على شاكلتهم من أرباب الحمية والسابقة فى تأسيس الملك الاسلامى وفتوحاته، ونشر الدعوة ، وصار يعوزهم المال يتطلبه طرز الحياة ، والذى أحدثته الحضارة الاسلامية ، إذ كانوا مع كل جريهم وسعيهم وراء تدارك معاشهم لا يستطيعون اللحاق بالمنتمين إلى العمال ورجال الدولة ، وقد فشت العزة والاثرة والاستطالة ، وتوفرت مهيئات الترف فى حاشية الأمراء وأهل عصبيتهم ، وفى العمال وبمن استعملوه وولوه من الأعمال ... إلخ .

فنتج عن مجموع تلك المظاهر التى أحدثها وجود الطبقات المتميزة عن طبقة العاملين والمستضعفين فى المسلمين ، تكون طبقة أخذت تتحمس بشىء من الظلم ، وتتحفز للمطالبة بحقهم المكتسب من مورد النص . ومن سيرتى الخليفة الأول والثانى أبى بكر وعمر .

كان أول من تنبه لهذا الخطر الذى يتهدد الملك . والجامعة الأسلامية ، الصحابى الجليل «أبو ذر الغفارى» فجاء معاوية بن أبى سفيان ، وهو فى الشام . وخاطبه بوجوب الرجوع إلى سيرة السلف ، وبتقليل دواعى السرف والترف ، وعدم التمادى فى مسببات الحسد ، والعمل على نزعها من العاملين من رجال المسلمين ، وذكر مواعظ كثيرة ، وعدد أخطاراً جمة، من وجود طبقة فقيرة عاملة مفكرة فى المسلمين، يكتنفها شظف العيش وقلة ذات

اليد بين ظهرانى قوم أكثرهم ممن لا سابقة لهم فى الاسلام ولا لآبائهم ، ولا من الصفات المحمودة ، ولا من المجهودات أو المميزات العلمية والجسدية ، ما يوليهم أو يعطيهم حق ما هم فيه من التنعم وطيب العيش والرخاء (غير محض الانتماء والأدلاء بولاء لآل حرب وعمالهم) .

فأجابه معاوية بما معناه : « يا ابا ذران ما تقوله هو الحق ، ولكنى ليس فى استطاعتى الرجوع ، لا إلى سيرة الصديق وسيره ، ولا إلى العمل الذى كان يعمله الفاروق ، وغاية ما فى إمكانى ، الحث على بذل الصدقات ، والقول اللين ، إرشادا ، وعن طريق الوعظ ، لتخفيف دواعى الحسد ، وغير ذلك فلا سبيل إليه » .

فقال أبو ذر : يامعاوية ، قد نصحتك ، والدين النصيحة ، فاحذر أنت والخليفة عثمان مغبة ما اتيتما عليه ..) وذهب من مجلس معاوية مغاضباً .

واجتمع مع طبقة المتالمين والمتذمرين من المسلمين ، وقص عليهم من سيرة السلف أشياء ، وأطلعهم على ما قاله عامل الشام معاوية بن أبى سفيان ، وأردفها بإعلانه مشاركته لهم فى كل ما يتحسسون به قلباً وقالباً . وبمختصر القول ، انه شجعهم على النهضة والمطالبة بحق صريح لهم اهتضمه جماعة بغير وجه شرعى ، ولا بإجتهاد امام سلف .

فكان من وراء عمل أبى ذر هذا ، أن حصل شىء من التهيج والانفعال النفسى ، بما خشى معه معاوية وأعوانه سوء المصير .

فجمع معاوية كيده ، واستنجد دهاءه ، وبعث لأبى ذر ليلا بألف دينار ، فقبلها أبو ذر ، وفى الحال بادر لتفريقها على الفقراء والمعوزين من المسلمين . وفى ثانى يوم أرسل معاوية رسولا (بتعليم منه فى الارسال الأول وفى البعث الثانى) وقال ، يا أبا ذر ، أنقذنى من عذاب معاوية ، فإن الالف دينار

لم يرسلها اليك ، وإنما غلطت ، فقال أبا ذر : والله لم يبق معى من دنانيره ولا دينار ، فليمهلنى حتى أخذها ممن وزعتها عليهم من المستحقين فى المسلمين.

وعلم معاوية صدقه وضاق به ذرعاً ، فكتب إلى الخليفة عثمان مستجيرا من لقاءات أبى ذر ، وما أحدثه من التأثير فى النفوس ، فأجابه مستسرعاً إرسال أبى ذر إليه ، فأرسله .

ولما تقابل مع عثمان لم يسمع منه أكثر مما سمع من معاوية، وانه لا يمكنه أن يفعل ما فعله الفاروق مع العمال من مصادرة ما عندهم من الثورة ، ولا أن يرجع ما كان من حالة مجموع المسلمين فى عهدى الصديق والفاروق إلا عن طريق الحث على بذل الصدقات والاحسان فقط . قال أبو ذر : (يا عثمان اما تذكر حديث رسول الله) — ومعناه — (إذا وصل البناء إلى سلع .. واستعلى فى المدينة . . وفشت . . الخ . .) وجبت الهجرة . أو كما قال فى مكان آخر : يا عثمان : ان النبى صلى الله عليه وسلم أمرنى بالخروج منها إذا بلغ البناء سلعا . (وهو جبل فى المدينة) فها قد استعلى بناؤك ، وبناء قريبك معاوية ، وأعوانكما ، فاستودعك الله ، تاركا لكم ، ولمن استعملت من العمال (أعمالكم) ، والله من ورائكم محيط .

فألح عثمان على أبى ذر ، ألا يفعل ، فقال أبو ذر : إن رسول الله أولى أن يتبع . وبالفعل قد هاجر أبو ذر من المدينة (١) .

كان فى عمل أبى ذر هذا ، أنه قد أخذ بعض النصح لخليفة المسلمين إذ ذاك (عثمان وينصح عماله)، وبالدفاع عن حقوق المسلمين، كى لا تتكون

---

(١) والواقع أن عثمان قد نفى أبا ذر ، إلى « الربذة » ومنع الصحابة من وداعه لكنهم خالفوه وودعوه .

طبقة اشتراكية يكون رائدها (الانتقام). بل دعاهم إلى العمل بنص القرآن والاقتداء بمن طبق ذلك النص عملا من الخلفاء كأبي بكر وعمر .

هذا مختصر ما علم به الدين الإسلامى من الاشتراكية المعقولة ، النافعة للمجموع الإنسانى ، وما عمل به أكبر خلفاء الاسلام .

وكل اشتراكية تخالف فى روحها وأساساتها اشتراكية الإسلام ، التى سبق ذكرها ، فلا تكون نتيجتها إلا ملحمة كبرى ، وسيل الدماء ولا سيل العرم من الأبرياء ، ومن تخريب لبناء لا يشاد عليه شىء ينتفع به أحد من الخلق . نعم .. يستفيد من يلوك بلسانه كلمة الاشتراكية ، ويجعلها احبولة صيد ، وهى كلمة حق يراد بها باطل .

أكرر القول : إن اشتراكية الاسلام هى عين الحق ، والحق أحق أن يتبع .

ودعوى الاشتراكية وأن قل نصراؤها اليوم ، فلا بد أن تسود العالم ، يوم يعم فيه العلم الصحيح ، ويعرف الانسان أنه وأخاه من طين واحد ، أو نسمة واحدة ، وأن التفاضل إنما يكون بالأنفع من المسعى للمجموع ، وليس بتاج أو نتاج، أو مال يدخره أو كثرة خدم يستعبدها ، أو جيوش يحشدها أو غير ذلك من عمل باطل ومجيد زائل ، وسيرة تبقى معرة لآخر الدهر .

شكر وتقدير

فى ختام هذا الكتاب لابد أن أزجى شكرى وتقديرى إلى أولئك الإخوان الأفاضل الذين أعانونى على إخراج هذا الكتاب سواء بإعداد المصادر أم بكتابة النصوص على الآلة الكاتبة أو استنساخها ، منهم الأساتذة محمد عبد الحليم عبد الله ويوسف الشارونى وطالب جميل وأنور الجندى والدكتور عبد الله درويش والدكتور عبد الجبار المطلبي وفؤاد أمين وصلاح التكريتى ويسرى محمد سلامة. وطلابى فى المعهد وشكرى الخالص للشاعر محمد أحمد العزب الذى أعاننى معاونة صادقة ومخلصة فى تصليح الكتاب والأخ محمد منير عبد اللطيف الذى أعد فهارس هذا الكتاب .

وأخيراً شكرى للصديق العزيز الأستاذ عبد الرحمن الخضير المحامى الذى صاحبنى فى القاهرة أثناء إعداد هذه المحاضرات فكانت صحبة جميلة هيأت لى جواً من الراحة والإلفة مما أعاننى على العمل وقرأ معى أكثر من نصف هذه المحاضرات وقام على إعدادها للطبع .

من مؤلفات الكاتب

١ — الشعر العراقى أهدافه وخصائصه فى القرن التاسع عشر .
الطبعة الأولى بغداد ١٩٥٨
الدار القومية — الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٥

٢ — الشعر العراقى الحديث ، وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه .
الطبعة الأولى بغداد ١٩٦٠
الدار القومية — الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٥

٣ — الشعر العراقى الاجتماعى بالإنكليزية — بغداد ١٩٦٢

٤ — مخطوطة شعر الأخرس — تحقيق — بغداد ١٩٦٣

٥ — خيرى الهنداوى، حياته وشعره معهد البحوث والدراسات العربية —
القاهرة ١٩٦٥

٦ — داود باشا ونهاية المماليك فى العراق منشورات على البصرى —
بغداد ١٩٦٧

٦ — التيارات الأدبية فى العراق والزهاوى الشاعر القلق — بغداد ١٩٦٢

٨ — فى الأدب العربى الحديث ، مقالات وبحوث ج ١ — بغداد ١٩٦٧

٩ — فى الأدب العربى الحديث ، وثائق ونصوص ج ٢ (تحت الطبع)

١٠ — مخطوطات عربية فى مكتبة صوفية العربية المجمع العلمى العراقى —
بغداد ١٩٦٧

١١ — الاشتراكية والقومية وأثرهما فى الشعر الحديث — القاهرة ١٩٦٨

١٢ — فى ضمير الزمن (شعر) مصر ١٩٥٠

١٣ — ألحان (شعر) مصر ١٩٥٣

١٤ — لهاث الحياة (شعر) بيروت ١٩٦٠

المحتوى

الموضوع الصفحة

الفصل الخامس

الفصل السادس

الموضوع | الصفحة

نصوص للدراسة ١٤٩—١٨٩

الفهارس :

الأعلام

(ك)

(ل)

(م)

الكتب والمراجع

الجماعات

(ص)

(ع)

(ف)

(ق)

(م)

(ن)

(ه)

(ى)

الأماكن والبلدان